رواية



أحلام على وسادة الوطن

المُعِز عَبدالمُتعَال سِر الخَتم

AVATAR

الناشر



رئيس مجلس الإدارة

د. زينب أبو سِنّة

الكتـــاب: أحـلام على وســادة الـوطـن
المـؤلـــف: المعز عبدالمتعال سر الختم
النـــــــوع: روايــة

- الغلاف والإخراج الفني

أفاتار للطباعة والنشر

www.avatar-printing.com

- **أفاتار للطباعة والنشر**

١ أبراج المهندسين – كورنيش النيل – المعادي – القاهرة (ج.م.ع).

تليفون:

(+2) 012 7113 1980

z.a.senna@hotmail.com

z.r.senna@gmail.com

فيسبوك هاش تاج:
#أفاتار_للطباعة_والنشر
#بيت_المبدعين_العرب

- الطبعـة: الأولى ٢٠٢١ م
- القطـع: 21 x 15 سم
- عدد الصفحات: 204
- رقم الإيداع: ٢٥٩٣٤ / ٢٠٢١
- الترقيم الدولي:

I.S.B.N: 978-977-6878-16-7

- لوحة الغلاف للفنان: إسحق عبدالغفور

أحْلامُ عَلى وِسَادةِ الوَطَنْ

رواية

المُعز عبدالمتعال سِر الختم

AVATAR
أفاتار للطباعة والنشر AVATAR For Printing & Publishing

- الطبعة الأولى -

2021


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

ماذا تَعني الحَياةُ دونَ قضيةٍ تَعيشُ مِنْ أَجلِها؟

على أيَّةِ وسَادَةِ حُلمٍ تَضَعُ رَأسَكَ حِينَ تَنامُ؟

المعز عبدالمتعال



I am Sorry !!!!!


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

الإهداء

ادينا خاطرك يا وطن
ناس في سبيلك كالغيوم
وا شوقنا للوديان زمن
سكّتنا دغرية وحِداك
جاتك بشاراتك إذن
علّمنا نستشهد فداك
نحن البنناموت سدًى.

محمد الحسن سالم حُمّيد


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

١

أنا وتوءَمي نجوى لا نفترق، نفس الاهتمامات المشتركة، ذات الأحاسيس والانفعالات، نجوع معًا، ونشبع معًا، لو انجرحتُ من فرط شقاوتي، تبكي حتى تضميد جراحي، تلعب معي ألعاب الأولاد، وألعب معها ألعاب البنات، تهزمني في كرة القدم، وتتجرّع هزائمي في (الحِجلة)، أسطو أحيانًا على ألعابها نكايةً، وتسطو على ضحكي ببكائها العنيد، ونعود توءَمين حميمين، يسري بيننا نهر الصفاء، وترتطم على صخور فقرنا أمواج الحنين.

تجمعنا أسرار الطفولة الساذجة، مرآة حماقاتنا، وشراسة الطبع، نثور معًا، وتهدأ قبلي، وحين بلغنا العاشرة، قرّرت أُمّي تفريقنا في المضاجع، ادّعينا البُعاد، وما إن تنام أُمّي، حتى نعود، وننام معًا متشابكي الأرواح، متعانقي الجسد، أختي ندى تغار مِنّا، تصغرنا بأعوام من الشغف، تقتحم رغباتنا، وتودُّ مشاركتنا ألعابًا أكل عليها دهر ذكرياتنا وشرب، تُفسد علينا أوقاتنا الجميلة بالنحيب السمج، تتمادى في الصراخ لو ضربناها، وتحوّل سكوننا إلى ضجيج وبكاء.

أبي موظف حكومي بسيط، في منازلة يوميّة مع احتياجات الحياة، بالكاد يوفّر مؤونة الطعام، وأُمّي تعافر في خدمة البيت، ومراجعة دروسنا، تمحو أخطاء يومنا بممحاة الصبر، وتغدق علينا بحنانٍ سخيّ.

ثمة شيء غامض بين أُمّي وأبي، شيء غير مريح، ليس خلافًا بينهما، ولا بُغضًا، شيء يحدث بينهما في كلّ زيارة يقوم بها خالي إلينا، تعوّدنا سماع أصواتهم في النقاش، خالي يحشر أنفه في حياتنا، وأبي يرفض، وأُمّي تحاول مسك عصا الحكمة من المنتصف، تبدأ عواصف النقاش، وتتحوّل إلى مجزرة من الشتم والسباب، ثُمّ يغادر خالي، وتعود حياتنا لطبيعتها.

حين يطرق خالي الباب بقدميه، نتهيأ جميعًا ونتحاشاه، نتجّنب لقاءه، نختبئ تحت السرير، أو خلف الأبواب، وكأنّما طريقته الغريبة في طرق الباب هي دقٌّ لطبول المعركة.

- لن أسمح لك بالتدخّل في حياتي يا حاتم.

- الأمر بيدي، لا بيدك.

- من أنت حتى تضع أمور حياتي بين يديك؟

صاح خالي بغضب:

- يا زينب، زينب.

هرولت أُمّي وهي تمسح بيديها على قميصها، قالت بلوعة:

- نعم يا أخي.

- قولي لزوجك من أكون؟ هل يعتقد أنّ راتبه الضئيل يغطي احتياجات بيتك؟

- لا تقسو عليه، ولا يقسو عليك، أنتما سرّ سعادتي، لا تجعلاني أحتار بينكما.

صاح أبي:

- ولماذا تحتارين؟ يمكنك الاستغناء عن زوجٍ فقير، وتتمسكين بأخ يعلم الجميع مصدر دخله الحرام.

نهض خالي، قال بغضبٍ هائل:

- ولماذا تأكله لو مال حرام؟

قال أبي والدمع يطفر من عينيه:

- ولا تزر وازرة وزر أخرى، هو إثمك وحدك، طلبتُ من زينب مِرارًا عدم قبول مساعدتك.

- وماذا عن حقيقة قبولكما المساعدة، وزرًا كانت أم هبة؟

وضعت أُمّي يدها على فم خالي، قائلة:

- أرجوك يا حاتم، لا تخرب بيتي، أنت تساعدني أنا، وهو لم يطلب منك المساعدة، بل رافض لها.

قال أبي، وهو يغالب مرارة اللحظة:

- خرب حاتم حياته يا زينب، باع ضميره من أجل سلطة لن تدوم.

قالت أُمّي بقلب مُمزّع:

- لعن الله السياسة، لا تجعلاها تفرّق بينكما.

قال خالي:

- لو كنت أعرف أنّك شيوعي، ماركسي، كافر، لما وافقت على زواجك من زينب.

ردّ أبي بحنق:

- ولو كنت أعرف أنّك ضابط أمن حقير، تأكل من عرق الضحايا، لما تقدّمت للزواج بها، هذا نسب لا يُشرّف.

تضاعف غضب خالي حدّ الهياج، ضرب بيده على المائدة بعنف، قال بعصبية:

- وأنت كذلك، لا تشرّفني، طلّقها؛ نسترحْ جميعًا.

قال أبي بعناد، ضاربًا المائدة بنفس طريقة خالي:

- لن أطلّقها، ولن أسمح لك بدخولك بيتي بعد اليوم، ولا بمساعدة أختك، أخرج من بيتي الآن.

صاحت أُمّي بفزع:

- لي ثلاثة أطفال، لا أرغب بالطلاق، ولا بفقدكما، ولن أسمح لكما بتعكير حياتي.

مضت للداخل وهي تهتز وترتعش من فرط البكاء، خرج خالي غاضبًا، يسبّ ويلعن، وجهه يومض بالشر.

خالي مسؤول رفيع في جهاز الأمن، طويل، بدين، أسمر اللون، على وجهه بثور سوداء، شديد الصرامة، يتعامل مع الجميع كأنّهم جنود تحت إمرته، حاد الطباع، شرس، عدائي، لا يرحم، كثير الحديث في السياسة، يتشاكس مع أبي، يتجادلان طويلًا، ودومًا يتهمه بالتواطؤ على إسقاط النظام، ينتهي بينهما النقاش بمعركة يعلو صوت طبولها آفاق الحي.

ثمة أحداث تحدث لنا في طفولتنا يصعب تفسيرها، حين سمعت هذا الحوار كنت في العاشرة، لم أكن أفهم طبيعة الصراع بين أبي وخالي، وكنت أحتار في موقع أمي من هذا الصراع، أحيانًا تقف مع أبي ضدّ خالي،

وأحيانًا مع خالي ضدّ أبي، وغالبًا تختار الحياد، دومًا مقهورة أمام سطوة خالي، وضعيفة أمام أبي وهي تواجه مُتطلّبات الحياة.

لم يغفر خالي إهانة أبي بطرده من بيته، سلّط عليه جهاز أمنه، شرّده من وظيفته الحكومية، وأحاله للصالح العام، رأيت بنفسي عساكر الأمن وهم يداهمون بيتنا كلّ أسبوع، يتلفون أشياء أبي، يسبّونه، ويُمعنون في إذلاله وإرهابه، ساديّون بلا رحمة أو ضمير، حاول خالي تركيع أبي بشتى السبل، ولم ينجح، وعلى النقيض كان أبي يدافع عن مبادئه وقِيمه، لا يخشى بطش خالي، ولا جيش أمنه الجرّار، يخرج صباحًا من أجل لقمة العيش، ويعود مساءً بلا مال.

وقف خالي في وجه رزق أبي، أسرف في السوء، قفل في وجهه أبواب الرزق، أمعن في بطشه واستغلال ضعفه، ثُمّ تعمّد إطعامنا وكسوتنا وتحمّل متطلبات حياتنا الدراسية؛ حتى يحرج أبي، رفض أبي طعام خالي، ساءت أحواله، قالت له أُمّي موجوعة:

- لماذا أغضبته وطردته؟
- لن أسمح لأحد بإهانتي.
- هو أخي الوحيد، طردته من بيتك، كرامته من كرامتي.
- ماذا عن كرامتي؟
- تعلم طبعه، وطبيعة عمله، أرجوك، اعتذر له، وافتح له بيتك.
- بعد أن شرَّدني من وظيفتي، وجوَّعني، وروَّع أمني وأرهبني؟ مستحيل.
- طال التشريد الآلاف.
- هذا يُضاعف من قبح فعله.

- أعني أنّك لست المقصود.

- قصدني وقصد الآلاف من الشرفاء، سأقف معهم ضدّه وضدّ نظامه حتّى الرمق الأخير.

- هل تستطيع مواجهة دولة؟

- الإرادة تقهر المستحيل.

- وأنا؟ وأشرف، ونجوى، وندى، ما مصيرنا في هذا الصراع؟

- هذا صراعٌ أزلي وأبدي، صراعٌ بين الحقِّ والباطلِ، بين الخيرِ والشر، بين الضميرِ الإنسانيِّ، واستبدادِ السُّلطةِ الدكتاتوريَّة.

- إلى متى؟

- إلى أن يرث اللّٰهُ الأرضَ ومَن عليها.

- صارت حياتُنا جحيمًا يا عُمر.

- الركوع له ولنظامه هو قاع الجحيم.

- أعلم أنّك شديد العناد، ولن تتنازل.

- أتمنى أن يتعلّم أولادنا معنى الصمود، لا التنازل.

تدهورت أوضاع أبي الصحيّة والنفسية، رفض الأكل، قال لن يدخل فمه طعام من عرق حاتم، تدخّل الجيران، وبعض الأهل، قاوم قليلًا، ارتدّت دماء الحياة من عروقه وانحسرت، حتى مات فجأة في يوم حزين.

بعد وفاة أبي تغيّرت أمّي كثيرًا، امتدّت شهور العِدّة لأعوام، صارت بائسة وحزينة، رغم جمالها ونقاء روحها إلا أنّها دومًا كئيبة، لا تتحدّث

كثيرًا، ولا تخرج، لا تتأثّر بتقلّبات الحياة، استسلمت وتركت الأقدار تفعل بها ما تشاء.

بعد مرور سنوات، قلت لها ذات نكبة:

- أخشى أن يقتلك الحزن كما قتل أبي.

- لم يمتْ أبوك من الحزن؟

- كيف مات؟

- مات باسلًا، وشجاعًا.

- قتله خالي أليس كذلك؟

- قتله الكثيرون، أوّلهم خالك، والدولة، وخيبتي.

- هل أضرَب أبي عن الطعام؟

- أضرَب عن الحياة.

- أحيانًا أتمنى أن أكون بطلًا مثل أبي، وأحيانًا مثل خالي بسطوته وجبروته وماله.

قالت بضيق:

- كن نفسك أنت، لا تتأثّر بأحد، ولا تجعلني أفقدك، يكفيني حزن واحد في عمري، أرملة مثلي يوجعها أن تُلدغ من جُحر الحزن مرتين، وتذكّر أنّك الرجل الوحيد في هذا البيت.

★★★


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

٢

مرّت السنوات، اليوم آخر أيامي في الكُليّة الحربية، صرت ملازمًا، لبست البزّة العسكرية التي حلمت بها طويلًا، لم أكترث لترتيبي، المهم أنّ كتفي صار مُرصّعًا بنجمة، نجمة وحيدة تتلألأ في سماء كتفي، والأرض تحتي سجّادة من الورود.

شعرت بسطوة هائلة وأنا أعبر كوبري النيل الأبيض متوجّهًا إلى بيتنا في (الكلاكلة صنقعت)، كنت أحلم دومًا بهذه اللحظة، لحظة عبوري الكوبري وعلى كتفي نجمة، كأنّ هذا الكوبري كان عائقًا يفصل بيني وبين حلمي، وصار الآن نقطة عبوري نحو حياتي الجديدة.

تأمّلت الكوبري، لا يزال كما هو، لا جديد عليه، كما رأيته أوّل مرّة، كلّ شيء في هذا العالم يطرأ عليه تغيير ما عدا هذا الكوبري، رغمًا عن ذلك تأملّته بسعادة كأنّني أعبره للمرّة الأولى، نظرت للماء من تحتي، شعرت بأنّني قائد أعبر إلى مجدي عبر بوابة التاريخ.

إلى أين؟ سينما قاعة الصداقة؟ أم شارع النيل؟ أم إلى جاري سليمان، تذكّرت كيف وصمني بالفاشل حين قررّت الالتحاق بالكُليّة الحربية، قال لي يومها بامتعاض:

- الفاشلون وحدهم يلتحقون بالكُليّة الحربية.

قلت له رافضًا الفكرة:

- الكُليّة الحربية كُليّة جامعية، تُدرّس مختلف العلوم، هي مصنع الرجال، وعرين الأبطال.

قال ضاحكًا:

- العالم يمضي نحو التحرّر من القيود، وأنت تسعى إليها بقدميك! القوّة الآن ليست في السلاح وخوض الحروب، بل في ثورة العلم والمعلومات والتقنية، وصل العلم تخوم القمر، وأنت تُراهن على مصنع يفرّخ لعنات وبطولات زائفة.

شعرت بإهانة، كأنّه يبصق على وجهي، قلت له بعصبية:

- هل شرف العسكرية لعنة؟

قال وهو يهزّ رأسه ويمتصّ دخان سيجارته بتلذّذ وينفثها متأفّفًا:

- لعنة في بلادنا.

- هذا المجتمع يحتاج لأطباء، ومهندسين، ومحامين، وعمّال، وحِرفيين، كما يحتاج للضُبّاط والعساكر.

- ولماذا يحتاج مجتمعنا للضُبّاط والعساكر ونحن نفتقد أبسط مقوّمات الحياة؟

- لحماية الدولة من الأعداء، وخوض الحروب من أجل الحفاظ على وحدة التراب، وسيادة الوطن.

ضحك قائلًا:

- حروب!! أعداء!! سيادة الوطن! يا ابني، متى خضنا حروبًا ضد أعداء؟ جيشنا يقرع طبول الحرب ضد أبنائه في دارفور، ويتناسى حدوده الشرقية

والشمالية، ويدفن بعدها رأسه كنعامة بائسة في تراب الخيبة، لذا لا فائدة من هذه المؤسسة العسكرية.

قلت له بإصرار:

- الحروب ليست محض قرارات سياسية وحسب، بل أحيانًا تندلع في بيتك بشكل مفاجئ، لو وجدت لصًّا في بيتك، هذه حرب بينكما، لو اعتدى عليك شخص في الطريق، تنشأ حربك معه، قد يُفرض علينا خوض حروب بين يوم وليلة، نخوضها للدفاع عن عرضنا على الأقل.

- بأيّة عقيدة؟

- بعقيدة الأخلاق الإنسانية، و...

قاطعني بتهكّم:

- المؤسسة العسكرية خلعت ثوب الأخلاق، وتدخّلت في الحكم عبر انقلابات متتالية، تواطأت مع المدنيين، وتخفّت خلف أحزاب عقائديّة، حتى صارت عقيدتها هي السطو على السلطة كلّما لاح فجر جديد.

- نحن جيل مختلف، جيل عاش الأزمة، سيعرف كيف يعالجها.

- أزمة المؤسسة العسكرية ليست أزمة أجيال، بل أزمة وجود، أزمة إلغاء العقل، وطاعة الأوامر دون تفكير، والتسليم بمبدأ واحد، وهو عدم الصبر على الديمقراطية، وتصيّد أسرع الفرص؛ للانقضاض على الحكم، لماذا لا يفهم العسكر فلسفة وجودهم في المجتمع؟ لماذا لا يكون الحاكم عازفًا لآلة موسيقية؟ أو شاعرًا؟ أو ناقدًا؟ لماذا لا نخضع المجتمع لسلطة مدنية تنتزع حقوقنا وحريتنا من فك التاريخ.

سليمان في منتصف الأربعين، نحيف، طويل القامة، لونه قمحي، يرتدي نظّارة طبيّة، شديد الحرص على حياته وحياة أسرته، يخرج للعمل صباحًا، ويعود دائمًا مع آذان العصر، يلبس جلبابًا أبيض، ويخرج لنادي الحي، يلعب الورق، يدخّن، ويتسامر، ثُمّ يعود لداره، حول حياته غموض كثيف، لا أحد يدري حقيقة وظيفته، فهو كثير التأفّف، يلعن النظام، ومع ذلك يبدو مستور الحال، لديه سيارة، لا يقودها ولا يستفيد منها، كأنّه يعلن للعالم أنّه يمتلك سيارة، لكنّه اختار بمحض إرادته حياة الفقراء والكادحين.

برغم شغفي الهائل بالعسكرية، وحلمي أن أكون ضابطًا، إلا أنّي كنت أفكّر كثيرًا في آراء سليمان، كنت أعترض عليها، وبيني وبين نفسي أشعر أنّه على حق، مِمّا ولّد لديّ شعورًا خفيًّا بالتحدّي، لا أدرى ضد مَن؟ ضد قوانين العسكرية؟ أم ضد آرائه؟ أم إرادتي في التحرّر من القيود العسكرية؟ شعرت بمسؤولية ما، كأنّي أقود انقلابًا إصلاحيًا داخل المؤسّسة العسكرية، أو كأنّي قائد جند منوط به الحفاظ على شرف العسكرية، وقيادة حرب ضدّ أعدائها.

قفز سؤال من سماء فضولي:

- لِم لا تقود سيارتك؟ ما جدواها؟

قال، وهو يستنكر تطفّلي:

- لا أحبّ السيارات، تكلفة تشغيلها أعلى من فائدتها، لذا أفضّل ركوب المواصلات العامّة.

- لماذا امتلكتها؟

- الامتلاك رغبة مختلفة.

زادت حيرتي، قلت له:

- تمتلك سيارة، ولا تستفيد منها؟

ضحك قائلًا:

- شهادتي الجامعية معلّقة على الجدار دون فائدة، وسيارتي كذلك دون فائدة، وحياتي كلّها تتسرّب مِنّي دون جدوى.

- كيف؟

تنهّد، وقال:

- حين قررّت الدخول للجامعة، كنت أعلم أننّي لن أجد وظيفة أنافس فيها بشرف؛ فالوظائف مُعدّة مُسبقًا لأعضاء الحزب الحاكم، ولمن لهم علاقات مع أصحاب القرار، ومع ذلك قررّت الدراسة، واكتفيت بتعليق شهادتي على الحائط. كلّما انظر إليها أشعر بنصل السُلطة يجزّ عنق أحلامي، تضاءلت رغبتي في البحث عن وظيفة تليق بحلمي، حتى ارتطمت بقاع البؤس.

- وماذا عن السيارة؟

- محاولة يائسة لمحاكاة البرجوازية الصغيرة، وإشباع رغبة الامتلاك، لكن بلا جدوى.

- هل أنت ماركسي؟

- ربّما، لا أدري، قرأت أفكاره وفلسفته، تعاطفه مع الفقراء جعله يجوب وجداني بجناح ملاك، وإنكاره للملكية الخاصة جعلني أشعر بالاختناق، كأنّ الماركسية غول يطأ صدر رغباتي.

- تبدو حائرًا.

- لا، تحديّت النظام، وتحصّلتْ على شهادتي الجامعية؛ في محاولة يائسة لتحقيق أحلامي المؤودة، وامتلكت سيارة رغمًا عن أنف ماركس، أنا وحدي من يقرّر تشغيلها، أو الركض في المواصلات.

تأملّته، يبدو أكثر عمقًا مِمّا تخيّلت، جريئًا، وغامضًا، قلت له:

- كأنّك تُعارك الحياة.

أجاب وهو يشعل سيجارة:

- أنت المُحارب، لا أنا، أنت وحدك المعني بالمعارك والانتصارات والهزائم، على كتفك نجمة السخط، تنتظرك نياشين اللعنات، وأوسمة الخيبة.

ضحك وهو يضمّني إليه، ومضى وهو يلوّح لي بعلامة النصر، لكنّها إلى أسفل.

تحرّر سليمان من قيوده، نزع عنه حبال اللعنات التاريخية، ولفَّها حول عنقي بعناية، حطّم قمقمه، وأدخلني به، حديثه يُذكّرني بحديث أبي وخالي، نفضت عنّي غبار الماضي، وعدت لعراء الروح، هزمني سليمان دون سلاح، هزمني وهو يرتدي جلبابًا، وأنا أزهو ببزّتي العسكرية، هزم أركان حربي، هزمني حين لوّح بعلامة نصر مهزومة، وتركني وحدي في معركتي ضدّ نفسي.

عاودتني رغبة اجترار الذكريات، طافت بخاطري ذكريات ذاك اليوم، على عكس كلّ أسرة تفقد راعيها، تبدّلت حياتنا للأفضل، صرنا نأكل أفضل الطعام، كسوة الدراسة على أفضل ما يكون، وسيارة فخمة بسائق

تقضي لنا كلَّ شؤوننا، وأُمّي صامتة، ونحن صامتون، نعلم مصدر أموال خالي، ولا نملك سوى طاعته.

أذكر ذاك اليوم حين زارنا خالي ومعه سائقه الخاص، كانت أُمّي كعادتها تمشي على رمال حزنها، تتمرّغ في صمت ولا تعترض، قال لها:

- ما الأمر؟

- نجوى.

- ما بها؟ أهي مريضة؟

- لا.

صاح بغضبه المعهود:

- ما الأمر إذن؟

- لا تهتم بدروسها، امتحانات الشهادة الثانوية على الأبواب، و ..

قاطعها بحسم:

- لا تقلقي، ستدخل الكُلّية التي ترغب بها.

- الصيدلة تتطلّب نسبة عالية، و.

- قلت لكِ لا تقلقي، انتهى الأمر.

ظهرت نجوى، واحتوته بعناق من الخلف، أغدقت عليه بقبلاتها، نظرتْ لأمّي، قالت لها وهي تُخرج لسانها وتتعمّد غيظها:

- قال لكِ لا تقلقي.

بضعفٍ ممزوج بالحيْرة، مضت أُمّي للمطبخ وهي تحدّث نفسها:

- تمدّد نفوذك يا حاتم، حتى وصل نتائج الشهادة الثانوية!!!

ناداها مُبتسمًا:

- لماذا لا تحملين هم أشرف؟

استدارت للخلف، فاضت عيناها ببريق السؤال:

- كلّنا نعلم أنّ رغبة أشرف هي الفنون الجميلة، ونسبة القبول فيها قليلة و....

قاطعها بحركة من يده وهو يُشعل سيجارة:

- أشرف سيكون ضابطًا في الجيش.

هكذا قرّر مصيري، حاولت الرفض، وحاولت أُمّي الوقوف معي ضدّه، طريقته في الرد كانت محض مساومة لعينة بين مستقبل توءَمي نجوى ومستقبلي، كُنّا نفهم أسلوبه، ونخشى عصيان أوامره، ولا نملك سوى الطاعة، حاولت كثيرًا التمرّد عليه، بحثت عن مصدر رزق دون علمه وفشلت، يبدو أنّه يقف في طريقي، كما وقف في طريق أبي من قبل، وكنت اعتدت على حليب ثدي الترف، وكان الفطام عصيًّا.

هذا ما كنت أخشاه، تأثير خالي على حياتي وحياة أسرتي، وعلى مصير وطن بأكمله، رعونته، فساده، طغيانه، وأساليبه القذرة، جعلتني أخاف منه، لم يكن ما يربطني به حُبٌّ، أو احترام، أو إحساس الخؤولة، كنت فقط أخاف منه، أخاف من عينيه حين يغضب، ومن يده حين تبطش، ومن لسانه حين ينطق، كنت أراه مسخًا مشوّها للبشر، رأيتُ بعيني كيف تعامل مع أبي، وسمعت الكثير عنه، عن مدى سطوته وحبّه للمال والنفوذ، وعن أوامره بقتل المتظاهرين، وكنت أجد له الأعذار في كلّ ما يقترفه إلا القتل، فلا مبرّر لقتل نفس نختلف معها في حُب الوطن.

يزورنا خالي باستمرار، زاد من اهتمامه بنا بعد وفاة والدي، قدّم لنا الكثير، راتبًا ثابتًا يفوق ما كان يتقاضاه أبي أضعافًا مُضاعفة، حاولت أُمّي البحث عن عمل؛ حتى تتحرّر من سطوته علينا، رفض بشدّة، لا تزال كلماته ترنّ في أذني، قال لها يومها:

- عارٌ عليَّ لو سمحت لشقيقتي الأرملة بالعمل.

أجابته بدهشة:

- وكيف سنعيش؟ لديَّ ولد وبنتان.

- أفضل مما كنتِ تعيشين.

رفضتْ بإصرار:

- من أموال جهاز الأمن؟

بغضب هائل أجابها:

- من راتبي يا زينب.

- أيّ راتب هذا الّذي يغطي احتياجاتي واحتياجاتك، ويوّفر لنا هذا العز، لو لم يكن مالًا حرامًا؟

صفعها بقوة، وأجبرها على الاعتذار، وأردف:

- قضيت ربع عمري في خدمة الوطن، لي من الامتيازات ما أستحق، إيّاكِ ثُمّ إيّاكِ أن تعودي لمثل هذا الحديث.

صاحت بجزع:

- اللّهم إنّي بريئة من ذنبك، ومن مالك، سيحاسبك اللّه وحدك.

بصق على الأرض، أشعل سيجارة، نفث دخانها بعنف، وقال:

- من الآن فصاعدًا، سأتحمّل كلّ أعباء حياتك، ستكون هناك سيارة مخصّصة لأسرتك، كلّ المطلوب منك هو طاعتي.

قالت ودموعها تنهمر:

- بشرط.

- ما هو؟

- لا تتدخّل في تربية أولادي.

ابتسم بخبث، ثم مضى دون أن ينبس، كانت تعلم أنّه سيتدخّل، حاولت أن تجد سببًا تتوازن به نفسيًا لقبولها لماله الحرام، وكانت تعلم استحالة الحياة دون دعمه.

★★★



٣

كعادتي بعد كلّ خروج من الكُليّة الحربية ودون وعي تسوقني قدماي لنادية، أشرب كوب قهوة، وكوب شاي، ارتاح من وعثاء الطريق، وكآبة التدريب العسكري، وسوء منعطفات الشوارع، هذه المرّة يبدو كلُّ شيءٍ مختلفًا، أنا الآن ضابط، أحمل نجمة السعد على كتفي، أزهو بها في الشارع، وأمام كلّ المارّة، عدا جاري سليمان، ونادية، كنت أشعر بأنّني ضئيل أمامهما.

نادية كعادتها تقسو عليّ في نقاشها معي كما يفعل سليمان، قسوة بها تحذير من لعنات محتملة من أهالي الحي.

قلت لها وروائح القهوة تغريني بالجلوس:

- بكم تبيعين الشاي لملازم حديث التخرّج؟!

لم تبتسم كعادتها، ولم تُكشّر، قالت ببرود:

- بضعف ثمن الرصاص الّذي تقتلون به أهلنا في دارفور.

ضحكت قائلًا:

- كوب شاي ثمنه أغلى من الرصاص؟!

- لِمّ لا؟ طالما ثمن الرصاص عندكم أغلى من حياة الناس.

- لا تفسدي عليّ نشوة التخريج.

قدّمت لي كوب شاي، قائلة:

- أخشى أن تفسد أنت علينا نشوة الحياة.

- أنا مجرّد موظّف دولة، لا أكثر.

قالت بضجر هائل:

- أسمع يا أشرف، أنت تعلم تمامًا طبيعة تكوين هذا النظام البائس، وأنّك لست مجرّد موظّف عادي، كلّ ما يعنيني أن تحدّد موقعك، هل أنت مع النظام؟ أم ضدّه؟

هول السؤال أجبرني على السكوت، هذا أوّل سؤال يواجهني، وفي يوم تخرّجي، وحتى قبل وصولي للبيت، رسم سؤالها لوحة حياتي بريشة الخوف، ووضعها في إطارٍ بلونين، أرى فيه صورة أبي من الأمام، وصورة خالي من الخلف، وأرى يدي ترتعش وهي تمسك اللوحة، ارتشفت الشاي، لم اتذّوق طعمه، دفعت لها ثمنه ونهضت بسرعة ومضيت للبيت.

لم يمضِ وقت طويل حتى استدعاني خالي، دلفت لمكتبه الأنيق، جلست أمامه وعنقي تدور في أرجاء المكتب تبحث عن مدخل يليق بحديث المخابرات، قال بحزم هائل:

- آن الأوان يا أشرف.

قلت بحيْرة:

- ماذا تعني يا خال؟

- حين أوصيت بقبولك للكُليّة الحربية، كنت أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.

قلت بألم فادح:

- في الحقيقة، لم تكن مجرد توصية، أنت وقفت أمام حلمي بدخول كليّة الفنون الجميلة، و..

قاطعني مُمعنًا في جبروته، قال وهو يضحك ويضرب بيده على مكتبه:

- فنون! جميلة!

- كان ولا يزال حلمي.

- بماذا يستفيد الوطن من مجرد رسومات كاريكاتورية؟!

- الوطن، أم النظام؟!

صاح بغضب:

- الوطن، الوطن يا أشرف، أنت لاتزال صغيرًا، أمامك مستقبل واعد، وأنا من سيرسمه لك رسمًا دقيقًا، وليس كاريكاتوريًا كرسوماتك الساذجة.

- ماذا تعني؟!

- نزل اسمك في كشف الضُبّاط المغادرين لمناطق العمليات، وقرّرت إعفاءك واخترتك لمهمة أفضل.

- ما هي؟!

- ستكون مديرًا لمكتبي.

قلت بفزع:

- في جهاز الأمن!

- سيكون راتبك خمسة أضعاف راتبك بمناطق العمليات، وأفضل بكثير من راتب كلّ عمداء كليّات الفنون الجميلة.

ارتسمت ابتسامة بلهاء على وجهي، قاومت امتعاضًا مفاجئًا، قلت بعناد:

- هل لي حق الرفض؟!

- بكلّ تأكيد، حينها ستقضي على شبابك وسط مناطق العمليات، بين الجثث وحقول الألغام.

- لمدّة عامين فقط، وبعدها..س....

قاطعني ضاربًا بيده بعنف على مكتبه:

- خطأ، أنت ضابط في الجيش النظامي، لا تملك إلا تنفيذ الأوامر، وأنا من يضع اللوائح والقوانين ويصدر الأوامر، هل فهمت؟

انتابني الرعب، تذكّرت حواراتي مع سليمان ونادية، انسكب كأس الخوف بجوفي، تجرّعته بمضض، بلعت لعاب الهلع، قائلًا:

- هل تعني أنّني لو رفضت الانضمام لجهاز الأمن، سأُعامل معاملة ال..

قاطعني بصرامة:

- ستُقدّم لمحاكمة عسكرية، بتهمة مخالفة الأوامر، وربما ستُعاقب بالتآمر على النظام.

شعرت أنّه يبالغ، طاف بخاطري ذكرياتي معه، ومع أبي، تيقّنت أنّ ولاءه لعمله أهمّ لديّه من علاقتي به.

قلت بانكسار:

- ما طبيعة عملي بمكتبك؟!

انفرجت أساريره، طفا على شاطئ جبينه موج الرضا، قال بفرح:

- لا تقلق، سيقوم بتدريبك ضابط ناجح، ستكون عيني وظهري، وذراعي اليمين.

- لي شرط.

- ما هو؟

- حققّت لك رغبتك بالدخول للكُليّة الحربية، هل تأذن لي بالدخول للجامعة؟

- أسمح لك، لو اخترت كُليّة الحقوق.

فكّرت قليلًا، وأعلنت موافقتي.

نهض من مكتبه، عانقني بحميمية جنرال في جهاز الأمن.

فاض نيل الذكريات وطفح، تذكّرت أوّل مرّة رأيت فيها نادية، خرجت مساء ذاك اليوم أتأمّل طُرقات "الكلاكلة"، لا أدري إلى أين؟ إلى أيّ مكان تستريح فيه رئتاي من هذا الاختناق، ثمّة شيء جاثم على صدر الضجر، شيء لا تحتمله جدران البيوت، ولا هواء الفناء الطلق، وجدت قدماي تقف أمام (لفّة الكلاكلة صنقعت)، جلست أمام بائعة شاي على (بمبر) غير وثير حتى كادت مؤخرتي تُلامس الأرض، ضحكت من قوانين الجلوس، لو تنازلت عن الـ(بمبر) وجلست على الأرض لكان أهون من هذا التحليق الأرضي، نهضت ببطء، محاولًا التخلّص من خجلٍ مُحتمل، نظرت سريعًا لمن حولي، خشيت أن يكون أحدهم لمح مؤخرتي وهي تتدلى من فراغ ال(بمبر) اللعين.

طلبت كوب شاي، ثُمّ أشعلت عود ثقاب، رميت قدّاحتي منذ زمن، تخلّصت منها ومن نارها المسجون، ما أجمل إشعال سيجارة بعود ثقاب،

انتظرت قليلًا حتى يتخلّص النار من ثاني أكسيده الكربوني، ثمّ وضعت النار صوب سيجارتي، أخذت نفسًا عميقًا حتى أتأكد من استجابة التبغ للاحتراق، وفي ذروة الاحتدام ومع أوّل نفس، داهمني إحساس مفرط النشوة، تابعت ضوء الثقاب وهو يخبو ويختفي، مُتعتي حين أري غياب النار في ملكوت التلاشي، كيف يلتهم الهواء المسكين نارًا عظيمة؟ أين تذهب شعلة النار وتختفي؟

ثرثّرة الدخان مع روائح القهوة تجعل النشوة أكثر سحرًا، رغبتي في الجلوس تتفاقم، هناك (بمبر) بجانب بائعة الشاي، جلستُ عليه مع آخر نفس من سيجارتي، كان أفضل حالًا من سابقه، تحسّست مؤخرتي، وجدتها تنعم بالستر.

أخذت رشفة من كوب الشاي، طعمه رائع، غارق في رائحة القرنفل، ثمّة (هبهانة) لامست شفتاي، لفظتها لداخل الكوب، وأنا أتارجح في غيبوبة النشوة.

سألتها:

- لِمّ الشاي عندكنّ ذو مذاق فريد؟

ضحكت بغنج لذيذ، قائلة:

- ربّما تقصد طقس الشاي، وعناصر متعته المختلفة.

تجوّلت عيناي في بهاء الطقس، قلت لها ولسعة بردٍ خفيفة تجتاحني:

- شيءٌ مّا يشدّني نحو بائعات الشاي، إسرافهّن في وضع التوابل، وحكاياتهّن التي لا تنتهي.

صارت ضحكتها أكثر توهّجًا مع لفحات النار، قالت وهي تهب اللهب لتزيده اشتعالًا:

- معظم زبائني من المتزوجين، هل أنت أحد المصابين بلعنة الزواج؟

ضحكت، يبدو أنّ مؤسسة الزواج فاحت روائح لعناتها في أرجاء الكون.

- لا، لست متزوّجًا، ما السرّ في ذلك؟

- لا أدري، كأنّهم يبحثون عن بئرٍ يلقون به أسرارهم، ويلوذون بنا من شرِّ الزواج.

- هل تبادليهم أسرارك؟

- نادرًا.

- ولِمّ؟

- الحديث رغبة المأزوم، والإصغاء متعة لا يعرفها إلا أمثالنا.

- لي أزمة وحيدة.

وضعتْ كوب قهوة أمامي على الأرض، ثم مضت لزبون آخر، تأملتّها وهي تمشي، نهوضها البديع يُرشي المقعد للتنازل عن احتوائها، سمراء يميل لونها للخُمرة، وقعَ غطاءُ رأسها فبان مُشاطها الجميل، ممتلئة الأرداف، فادحة العجز، تمشي كأنّ حولها عفريت، تلتفت كثيرًا في كلّ اتجاه.

عادت بعد قليل، ابتسامتها كمذاق قهوة الصباح.

قلت لها:

- كأنّك مرتبكة؟

- زبوني يح...

صمتت قليلًا، ثُمّ عمدت لتغيير حديثها، نظرتُ إليه، وجدته يُمعن النظر إلينا، يبدو أنّه غير مسرور لوجودي، ربّما ينتظر مغادرتي للجلوس معها، هل هو مجرد زبون عادي؟

ارتشفت قهوتي على عجل، دفعت الحساب دون تدقيق، ثُمّ نهضت، رفضتْ نهوضي، وهي تلوّح له بالانضمام إلينا.

جاء يحمل بيده (بمبر) وبيده الأخرى حقيبة جلدية، وضعها على ساقه وهو يجلس، نظراته تخلو من الإحساس، قدّم نفسه باسم لا أدري لماذا شعرت بأنّه مستعار:

- اسمي غسّان، معلّم بالمدارس الثانوية.

- أنا أشرف.

تبادلا نظرات مرتبكة، قالت له بثبات:

- لا تقلق، هات الأوراق.

نظرات الشك تزداد في عينيه، نظر في كلّ اتجاه، ثّم فتح حقيبته وأخرج منها كتلة من الأوراق ملفوفة بكيس شفّاف، وضعها على الأرض، ثُمّ نهض واختفى سريعًا.

اجتاحني موج الارتياح، توالت زياراتي لنادية، حكيت لها بعضًا من قصّة حياتي، دومًا أهرب من نفسي ومشاكلي لشراب الشاي عندها، أشكو لها همّي دون تفاصيل، هُمومي تبدو سطحية أمام همومها، همومي التخلّص من الترف ومن نفوذ خالي وحماية جهاز أمنه، وهمومها التخلّص من الفقر ومن سيطرة جهاز الأمن وبطشه، وإسقاط النظام.

كلّ شيء يبدو بيننا جاذبًا ومتناقضًا، كنت أراها حلمًا وطنيًا شديد البهاء، وكانت تراني سدًّا يقف بينها وبين الوطن.

حاولت أن أقول أنّني بريئ من أفعال خالي، فينطق عطري برائحة النفوذ، حاولت مرارًا طمأنتها بأنّي لا أطيق حياتي، تنكمش حروفي وترتّد أمام نظرات عينيها الصامدة، حاولت مساعدتها ماديًا بكافة السبل، دومًا ترفض مساعدتي، كُلّما كبرتْ في نظري كُلّما تقزّمتُ في عينيها وفي عين ضميري وفي حدقات الوطن.

صعدت سلّم الشك درجة درجة، لم تكن نادية بائعة الشاي سوى عضوًا في تنظيم سياسي يعمل على إسقاط النظام، هل تنتحل عملها لتغطيّة دورها السياسي؟ أم عملها هو الّذي دفعها للمقاومة لإحساسها بالظلم الاجتماعي؟

كان الطقس باردًا حين ذهبت إليها في مساء اليوم التالي، رأيتها عاكفة على موقدها، تغسل بعض الأكواب، وتراقب النار بعين لا تغفل، دائمة الانهماك، لا يغيب عنها شيء، وتُتقن كلّ شيء، تتحدّث وتعمل وتنصت، وتتابع زبائنها بكلّ اهتمام، جلست بقربها، صافحت عيناي جفونها الناعسة، قلت لها:

- هل ضايقك وجودي بالأمس؟

شعرتْ بالحيرة، داعبتْ نارها المُتّقدة، حتى أطلق الجمر ساقيه لريح اللهب، وضعت يديها على حرارته، استمدّت الدفء، ثُمّ مسحت وجهها، قائلة وهي تقرّب الـ(بمبر) قبالتها:

- اجلس يا أشرف.

جلست، حاصرني الصمت، حتى أنّني نسيت السؤال، يبدو أنّه سؤال بلا معنى، لا أدري كيف أبدأ الحديث، تبادلنا نظرات تُفصح عن رغبة مشتركة في انتظار من يبادر بالحديث، حين طال الانتظار قالت وهي تمد لي كوب شاي:

- اسمي نادية، أرملة، أمّ لطفلين، بنت وولد، أُغتيل زوجي تحت التعذيب بعد اعتقال دام شهورًا، كان زوجي مُعلّمًا في المدارس الثانوية، تمّ اعتقاله أمام عيني، و ..

فاجأ عينيها مخاض الدموع، خفّفت عنها بسؤالي:

- لماذا اعتقلوه؟

- كان زوجي قياديّ في حزب معارض، قام بدور كبير في توحيد صفوف المعارضة في السنوات الأولى للنظام، تمّ استدعاءه لحرب الجنوب، رفض الذهاب، كان مُسالمًا يُحبّ الحياة، قال لي يومها، هذه حرب لعينة، من يخوضها خاسر لا محالة، تعنّته الشديد دفعهم لاختطافه من البيت، تكرّرت اعتقالاته لسنوات، طالبوه بالتعاون معهم فرفض، حاربوه، حتى مات في بيوت الأشباح.

مات وتركني وحدي أعاني فقده، وصراع البقاء، يوم موته علمت أنّ شيئًا مّا يدور في خفاء الكون، نهضت يومها من نومي مذعورةً خائفة، كيف يغمض الكون عينيه عن كلاب لئيمة ولغت في أحشاء الحب؟ كيف تنام عين أرملة أنهك الجوع صغارها؟ كيف أقاوم صراخ جوعهم وجوعي؟ شعرت بأنّني عُشبة تتسلّق شجرة العذاب، تُشاركها الماء والأرض وتنمو معها دون إذن، لم يتبقّ لي سوى خيار بيع الشاي، أقضي النهار في مهنة التدريس، وفي المساء أبيع الشاي، وأقوم بمساعدة الشرفاء، حدثّني عنك.

- مجرّد إنسان عادي، وأحيانًا أبدو حائرًا، أحتار في كلّ شيء، حيرتي في اتخاذ قرارات مصيريّة تعادل حيرتي في اختيار ربطة عنق، لا أخفي عليك، لا أميل للسياسة، منذ أن كنت طالبًا في الثانويات لم أنضم لحزبٍ سياسي، لا شغف لي ولا هواية محدّدة، أعشق الرسم ولا أرسم، أحب السفر ولا أسافر، أكتب بعض المقالات والخواطر والقصص، ولا أنشرها، أتردّد كثيرًا في نشرها، خوفي من النقد يجعلني أمزّقها بعد الانتهاء من كتابتها، في نهاية الأمر أستسلم لقدري، وأعود مُجدّدًا لحالة اللا شغف.

- تبدو حياتك بلا هدف.

- تقصدين بلا شغف.

- السياسة ليست شغف، السياسة حقوق، وأحلام جماعية، ووطن يحتوينا بكلّ دفء.

- لا تعنيني الصراعات السياسية، مُجرّد لافتات وحالات هتاف أجوف، الاشتراكية وجهٌ آخر لقبح الرأسمالية، سفور العلمانية لا يقلّ بشاعة عن الإسلام السياسي، مُجرّد مصالح سياسية وإن اختلفت المواقع.

- أين أنت من الوطن؟ من قضاياه ومشاكله.

- ماذا جنيتِ أنتِ من القضايا السياسة غير فقدانك لزوجك؟

- وهذا ما يدفعني للاستمرار.

- تستمرين في طريق غير آمن، محفوف بالخطر.

- هل تأمن أنت على شيء، في هذا الوضع الشائه؟

- لا، لكنّني لا أواجه أخطارًا مثلك.

- ما أجمل أن تخاطر من أجل وطنك، لذلك أنت تائه، لا تعرف لذّة العطاء للوطن، لا تحلم بيوم نتخلّص فيه من هذا الكابوس اللعين، ماذا تعني الحياة دون قضية تعيش مِن أجلِها؟ على أيَّةِ وسادةِ حُلمٍ تَضع رأسَك حين تنام؟!

شعرتُ بإهانةٍ خفيَّة، قاومت رغبتي في إنهاءِ الحديث، شيءٌ خفيٌّ يجعل رغبتي في الاستمرار تتضاعف، قلت لها:

- حين تتحوَّل الحياة لصراعٍ، تفقد طعمها، هلك الَّذين من قبلك في هذا الدرب، ولم يجنوا غير السراب.

- بل حصدوا سنابلَ بلونِ الحياةِ وطعمِ الوَطنِ، أبي رغم مرضِه، لا يزال يَشقى، قضى نصفَ عمرِه في العملِ السياسي، من مُعتقلٍ إلى مُعتقل، نقابيّ عمَّالي، أدَّى رسالتَه في الحياةِ كأبهى ما يكون، ماذا خسر؟!

- الحياةُ كدفترِ حسابات، قد لا نشعر بحجمِ خساراتِنا قبل أوان الجرد.

- أنا نتيجةُ عملِه، صفحته الأخيرة في جردةِ الحساب.

- الحياة لا تقف عندك، لو وقفت عندك لما كُنتِ أمًّا، أطفالك وأحفادك من يتناوبون في فتح دفتر حياتك.

- حين تتزوّج ويكون لديك أطفال، ستحرص عليهم، وسوف تناضل من أجلهم، والنضال ليس توفير طعام ومأوى، بل هو توفير وطن.

تبدو نادية كطريدة في براري الحياة، تتربّص بها الوحوش، وكلاب الصيد، سألتها:

- كيف تقسّمين أوقاتك؟

- أبي يساعدني في الاعتناء بأطفالي، وجارتي تعتني بأبي.

- ومن يعتني بكِ؟

- حُلمي المتّقد.

- ماذا تعني؟

قالت وهي تحتمي بالنار من البرد:

- هل ترى جذوة اللهب؟

- أكيد.

- هل تستطيع مسكها؟

- لا.

- كذا حلمي، قريب منّي ولا أناله، قريب حدّ الإفلات، وبعيد حدّ الاعتناء، أخافه كلّما اقتربتُ من حرارته، لو ابتعدتُ قليلًا يعتني بي أكثر ويمنحني الدفء والأمان.

- ليتني هذا اللهب.

ابتسامتها تدنو مِنّي أكثر، داهمنا الوقت، جمعت أكواب الشاي المبعثَرة، اطفأت نار حلمها، حاولت مساعدتها، رفضت بلطف، ثُمّ استأذنت وغابت كحُلم جميل.

★★★


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

٤

برغم مرور سنواتٍ على حديثي مع نادية، إلا أنَّني دومًا أسترجع هذا الحديث، وأقف طويلًا عند سؤالها المخيف، على أيَّةِ وسادةِ حُلمٍ تضع رأسَك حين تنام؟ لا يزال حديثها يحمل نفسَ فلسفةِ الصِّراعِ الأزليِّ بين الفِكرةِ ونقيضِها، باختلافِ درجاتِ الوضوح، هزمني منطقُها في مواجهةِ عبثيَّةِ حياتي، وبرغمِ قناعتي بعدمِ جَدوَى السِّياسة، إلا أنَّها تعيش للآخرين، بينما أعيش لذاتي، تؤدِّي وظيفتَها في الحياةِ بجسارةٍ، وأؤدِّيها بخجلٍ وخوف، اكتشفتُ أنَّني ضابطُ أمنٍ ضئيلٍ، عرَّتني أمامَ مِرآةِ نفسي المشروخة، وكشفتْ دوريَ البائس في الحياةِ، الحَذر والمشي بجانب الحائط فعلٌ مُخزٍ، لا الحائط ساتر، ولا طريقي يُفضي للحق، ماذا لدَيَّ لأخسره؟! لا زوجةَ، ولا أولادَ، ولا تاريخًا ناصعًا أخشى ضياعَ مجدِه، وهي امرأة وأرملة، تكافح ليل نهار، وتقوم بدورِها الوطني رغم صعوبةِ حياتها، وأنا رجلُ أمنٍ يتملَّكني الرُّعبُ من مواجهةِ الشرفاء، حتى صرت جزءًا مِن آلةٍ تفتك بالبشر، تُمارس الاعتقال والتعذيب، والتشريد، يا للجُبن!

منذ زمنٍ بعيدٍ وأنا أتحاشَى المعارك السياسية، أوهم نفسي أنَّ دوريَ في الحياةِ مختلف، وبداخلي يقين بأنَّني خذلت الحَق، أذكر ذاك اليومَ حين قرَّر الطلاب الدخولَ في اعتصامٍ عن الامتحانات؛ تعاطفًا مع طالبة اغتصبتها أجهزة الأمن، قرَّرت الإدارةُ فصلَ كلِّ مُعتصمٍ، دخلت الامتحاناتِ مع مجموعةٍ من الطلاب المتواطئون مع السلطة، وكسرتُ الاعتصامَ، وقتها

نجحت في امتحان الدراسةِ، وفشلت في امتحانِ الضمير، حاولت إيجادَ مبرّرٍ يسندني نفسيًا وفشلت، ثمة حزنٍ يجتاحني الآن، ليتّني نِلت شرفهم ورسبت مثلهم وكسبت نفسي، ماذا يعني نجاحٌ بائسٌ مسروق، أمام رسوبٍ عظيم كرسوب زملائي المعتصمين؟!

أكثر ما أوجعني حين رأيت الطالبةَ المُغتصبة ذات يوم في كافيتريا الجامعةِ، حزينةً، مكسورةً، عيناها تومئان بحُزنٍ ممزوجٍ بخوفٍ وقلقٍ، تبدو تائهةً، شاردةً عن نفسها، وعن الوجود.

تمعَّنت فيها، عينا المُغتصبةِ لا تكذبان، دموعها دليلُ براءتِها في محاكمِ العدالةِ الإنسانية، حاول أنصارُ النظامِ تكذيبها، قالوا إنّها عاهرةٌ متمرّسةٌ في بيعِ الهَوى، وأنّ مستواها الأكاديمي تدَهْور، لذا أوهمت الطلابَ بحكايةِ اغتصابِها؛ حتى تؤثّر في عمليةِ الامتحانات.

تأمّلتُ نظراتها، شعرت بذنبٍ هائلٍ، تُرى ما سِرُّ لغةِ العيونِ؟ كيف تُفصح عن آلامنا وسعادتنا؟ كيف تكشف عن أسرارِ النفس وتفضح كلَّ مستور؟

أحتار كثيرًا في طبيعةِ الأشياء، لماذا يكونُ الحيادُ لعنةً تُلازمني في حياتي ومواقفي السياسيةِ؟ تذكّرتُ مقولةً مشهورة تقول:

"إنّ المُحايدَ شخصٌ لم ينصرْ الباطل، لكنّه من المؤكد خَذَل الحَق"، هذه المقولة ظلّت تعذبّني طوال حياتي، توقّفت عندها كثيرًا، تأمّلتها من الجانبين، جانب عدم نصرة الباطل، وجانب خُذلان الحَق، كأنّهما جانبٌ واحدٌ مَقيت، تعجبّت من انعدام حالة الوسط، لماذا تنعدم خانة الوسط المريحة؟ لماذا تغيب خياراتي أوانَ احتياجي لها؟ كنت أرفضُ التصويت في انتخابات اتحاد الجامعة دعمًا لحيادي، وفي المواقف السياسية الأخرى كان

انحيازي للحزبِ الحاكمِ خيانةً لضميري، أمَّا انحيازي للمعارضةِ فكان يُقلقني ويَضعني في مواجهة حتمية مع النظام، فاخترت الحيادَ اللعينَ.

لم تشفعْ دراستي للقانون، وعملي بجهاز الأمن في تغيير نظرتي، هل هذا يعني أنّني عصبت عين الحق بخرقة التخاذل؟ ومسحتُ فمي بمِنديل الباطل؟

لا تزال هذه المقولة تقصم ظهر عمري، أعلم أنّني لم أنصرْ الباطل يومًا، لكنّي لا أدري كيف خذلت الحَقَّ؟ هل أنا جبان؟ لا أدري لماذا تجبرنا المواقف السياسية على حِدّة التصنيف؟ لماذا يجب علينا اتخاذ مواقف واضحة في السياسة؟ قَمع السُّلطة المُفرط يجعلني أبدو جبانًا، هل أنا فعلًا جبان؟ لا، لست جبانًا، نعم أنا ضابطُ أمنٍ، لكنّني مُفرّغ للدراسةِ، لم أؤذِ أحدًا، ولم أمارسْ أفعالَهم البشعة، حاولت التوازن بين الموقفين، وتعلَّمت الحِرصَ، كنت حريصًا على إكمال دراستي بهدوء، وأكثر حرصًا على وقتي وصحّتي وعلاقاتي، لا أودّ أن أخسر أحدًا، الصِّدام شرٌّ لا يعنيني، ثُمّ إنّ المواقف السياسية نفسها تتغيّر وتتبدّل مع الأيام، فلا عدوَّ دائم، ولا صديقَ دائم في عالمها الغريب.

لا أحدَ في الجامعة يعلمُ حقيقةَ عملي بجهازِ الأمن، ولا حتى أنصار النظام، وفي يوم تصاعدت الأحداث عقب ركنِ نقاشٍ كنت أشاهده، تحدّث أحد المعارضين للنظام بقوّة، كان المتحدّث في نفس دفعتي في كليّة القانون، تربطنا علاقة سطحية، فَضَح أساليبَ جهازِ الأمن، تطوَّرت الأحداثُ بعدها، وجدت نفسي في مواجهةٍ عصيبةٍ مع طُلّاب النظام، كانوا مُدجّجين بسياط القهر، والهراوات، والبنادق، حاولت التسلّل خارج أسوارِ الجامعةِ وفشلت، احتميتُ بالمسجدِ، وبعد انجلاء الموقف، تبيّن أنّ المتحدّث أُغتيل

غدرًا، وأنّ الطلابَ خرجوا للشوارعِ يهتفون، صمتي كان الموقفَ المُعلَن رغم ألمي الهائل وقتها، توقّفت الدراسة لشهورٍ، وعدنا بعدها، كأنّ شيئًا لم يكن.

ضميري الإنساني يختارُ الوقوفَ ضِدَّ النظام، أساليبُه الوحشية تعرّيه، وحرصي على حياتي من مخاطر القتل والتعذيب يجعلني أرفض ما اختاره ضميري، فأجدني أمضي في صحراءِ الحيادِ، أغرس فيها سيفَ حِرصي، وأنجو بنفسي تجاه نَجمةِ الأسفِ.

صارت نادية واحتي في صحراءِ حيادي المُقفرِ، أرتشفُ حديثَها كلّ يوم وأرتوي، نقاشها الهادئ يكفيني ويُشبعني حدَّ التخمة، كلُّ يومٍ أذهب إليها في السوق، أطلب كوبَ شايٍ، أدفع ثمنه، وتُقدّم لي كوبَ قهوةٍ مَجانًا، صِرنا حميميين، يجمعُنا مذاقُ الارتشافِ، ويُفرّقنا ليلُ الشتاءِ الطويلِ، حتى كان ذاك اليوم.

اختفت نادية، بحثتُ عنها في كلِّ أطرافِ السوق، سألت عنها بائعات الشاي والمارّة، لا أثر، أصابني القلقُ، جزعت لفقدها، أين هي؟!

دلّتني إحدى بائعات الشاي لبيتها، طرقتُ الباب، فتحت نادية، عيناها حزينة، وجهها شاحب، كأنّها مريضة، سألتها بجزع:

- ما الأمر؟

اعتذرت عن دعوتي للدخول، من فتحة الباب رأيت بيتًا متواضعًا، غرفة واحدة وفناء صغير به عريشة خاوية إلا من العتمة، مع ضوءٍ بعيدٍ يتسلّل إلى المكان، قالت بحزن هائل:

- وضعي لا يحتمل ضيافتك، امرأة وحيدة بلا رجل، الرجلُ الوحيدُ أبي، اعتقلوه، ولا ندري مكانه.

قلت بذهول:

- اعتقلوه! أتمنَّى أن يكون بخير.

- لا خير مع جهاز الأمن، أبي مريض، اختطفوه دون السماح له بأخذ أدويته، عليهم اللعنة.

تنهَّدّتْ، انهمرتْ دموعُها بغزارةٍ، اتكأت على البابِ وأجهشت، بدأت تتشنَّج من شدّةِ البُكاءِ، حاولت تهدئتها وفشلت، كان بكاؤها حارًّا، صوتها على شفا الانهيار، وكنت في أشد حالات الضيق، اعتذرت لها، ومضيتُ على مضض.

عقلي مشغولٌ بالتفكير فيها ،وعن مصيرِ والدِها، تُرى أين أخذوه؟ ولماذا؟ قطعًا عذّبوه، إلى متى السكوت عن هذا النظام البغيض؟! لابدّ من ردودِ أفعالٍ تحفظ كرامَتَنا وحقوقَنا، كلَّما انحنينا زاد الجلَّادُ عنفًا وقسوةً، أيُّ حكمٍ هذا الّذي يرفع شعارَ الدينِ ولا دين له؟! يعتقلون رجلًا كبيرًا ويحرمونه من الدواء؟! بلغَ سيلُ الألمِ زُباهُ، قُرعت طبولُ حَربِ الغضبِ داخلي، واشتعلَ الحريقُ.

كيف أكون ظابطَ أمنٍ يُدافع عن هذا النظامِ؟ لم أتمالك غضبي، لابدَّ من فعلِ شيءٍ، اشتريتُ حليبًا، وجُبنًا، وفرختين وخبزًا، رجعتُ لبيتِ نادية، طرقتُ البابَ، فتَحَتْهُ وهي تَشهقُ من الدَّهشةِ:

- أشرف؟!

- آسف لإزعاجك.

لايزال الحُزنُ بعينيها، وجهُها فاتر، يبدو أكثر شحوبًا، قالت:

- أأنت بخير؟

وضعتُ الأغراض على مِقبض البابِ المفتوحِ، ثُمّ مضيت..

فارقني النومُ ليلتَها، كانت ليلة خميس، غدًا الجمعة، ذهبتُ للصلاة، بعدها تَجمهّر بعضُ الشبابِ، تحدّثوا عن اعتقالِ عم شوقي والد نادية، وعن دوره في تكوين لجانِ المُقاومة في مدينةِ (بُرّي).

تمضي الأيامُ كئيبةً حزينةً، رَسَبَت نجوى في معظمِ موادِ السنةِ الأخيرةِ في الجامعة، أمّي في غايةِ الاستياءِ، ونجوى لا تبالي، كأنّها تتعمّد الرسوب، وخالي يطمئن الجميع! سألت نجوى:

- رسوبك في معظم المواد يعني أنكِ غير جديرة بكُليَّة الصيدلة.

قالت بامتعاض:

- وهل نجاحك في العمل في جهاز الأمن يعني أنك جدير؟!

صَفَعتُها بقوّة، قائلًا:

- لا، بل يعني قُدرتي على صفعِك وتأديبك بجدارة.

انهارت وهي تنوح، قالت بتشنّج:

- سألتحق بقائمةِ المجاهدين، كما وعدني خالي، وستكون امتحاناتِ الملاحق شكليَّة، لا تقلق.

- قلقي على ضميرك، ومستقبلك، كيف تسمحين لنفسك بالحصولِ على شهادةٍ أكاديميةٍ بالكذبِ والتضليل؟

- كلُّ حياتِنا كذبٌ وتضليل، طعامنا وشرابنا بالحرام، هذا التلفاز اشتريناه من مال مشبوه، لدينا سيارة لا نستحقها، ثمنها مَدفوعٌ مِن دَمِ الفقراء، أنت نفسك تنازلت عن حلمِك بأن تكون فنانًا، وتحوَّلت لقاتلٍ في جهاز الأمن.

انهلتُ عليها بالصفعاتِ، ركلتُ مؤخرتَها بقوّةٍ، ثُمّ بصقتُ على وجهِها، وسحبتُها من شَعرِها.

صارت تصرخ، حاولت تكميمَها، تدخلّتْ أُمّي لحمايتها، وصفعتني على وجهي، قائلة:

- لست مسئولًا عن تربية نجوى، أنا وحدي المسئولة عنها، وعنك، وعن ندى.

شعرت بألم صفعتها، قلت بمرارة:

- نجوى تجاوزت حدودَها معي، و ..

قاطعتني بصرامة:

- سمعت حديثكما، نجوى واضحة رغم فداحة الغش، وأنت ظالم رغم تحمّلك عبء وظيفتك الإجرامية، وأنا ضائعة بينكما، أرملة، لا حول لي ولا قوَّة.

خرج صوتي بصعوبة:

- كلنا ارتضينا وظيفتي، ونستمتع جميعًا بخيرها، من يستمتع بمالي ومال خالي، لا يحق له الإساءة.

قالت أُمّي بإصرار:

- وأنت لا يحق لك رفض أسلوب نجوى في حياتها، فهو من ضمن خيرات خالك ونظامه اللعين.

- ماذا حدث لكِ يا أمي؟!

قالت بأسىً:

- ماذا حدث لنا جميعًا؟!

نجوى تبتسم ابتسامة لزجة، ممزوجة بطعم الفشل، ابتسامة منتصر مهزوم.

لا أدري كيف ومتى انضمت نجوى للحزب الحاكم؟! صارت تدافع عن النظام بشراسة، حتى أنّها صارت تقضي وقتًا طويلًا خارج البيت، أُمّي ترفض سلوكَها، ولا تجرؤ على التصريح، حتى كان ذلك اليوم.

انتقلت الاحتجاجات للجامعات، كانت الأوامر بقمع المتظاهرين داخل الحرمِ الجامعي، وعدم السماح لهم بالخروج للشارع، دافعَت نجوى مع أنصار النظام لموقف السلطة، كان الاحتكاك كبيرًا، استخدمت أجهزة الأمن الهراوات، والغاز المُسّيل للدموع، والرصاص الحي، كسر المتظاهرون بابَ الجامعة وخرجوا للشارع، اخترقت رصاصة ساق نجوى بالخطأ، ونقلوها للمستشفى.

قضيت ليلتي مع أمي بالمستشفى، بعد إجراء عملية جراحية، واستخراج الرصاصة، فاقت من التخدير، وجهُها شاحبٌ من فرط الذبول، قالت بخمول:

- أين أنا؟

احتوتها أُمّي وانهالت عليها بالقبلات، قائلة:

- تبًّا للسياسة، والدراسة، من الآن لن تذهبي للجامعة.

ابتسمت بشحوب، قائلة:

- أَيَنْما تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ.

- صدق الله العظيم.

قلتُ لهما:

- قدرٌ أخفُّ من قَدرْ.

قالت نجوى بحزن وهي تستعيد ذاكرتها:

- ما أوجعني ليست الإصابة، بل الفوهة التي صدرت منها الرصاصة، هي نفس الفوهة التي أدافع عنها، والتي تحميها وتوجّهها يا أشرف.

بلعتُ ريقَ حزني، شعرت بسوءِ الفكرةِ، أن تحمي نظامًا ويرتدّ إليك حتى لو عن طريق الخطأ.

قلتُ لها:

- ليست المشكلة في توجيه السِّلاح فقط، المشكلةُ الكبرى في فلسفةِ وجودِه.

قالت أُمّي بلوعة:

- هذا ما كنتُ أخشاه، من وفاة أبيك، وخوفي من فقد أولادي يشتد، ما يؤلمني حقًا هو موت أبيك بسبب السياسة، وهو في موقع المعارضة، وأنتِ تصابين بالرصاصِ رغم انتمائك للنظام الحاكم، أيُّ جنون هذا؟ خطر هذا النظام يُحدق بنا من كل اتجاه.

قالت نجوى:

- طلب خالي مِنّي الانضمام للحزبِ الحاكم سرًّا، حاولتُ الرَّفضَ، قال لي كوني كأشرف، ولا تكرّري مأساةَ أبيك.

قالت أُمّي:

- خالُك هو المأساةُ الوحيدةُ في حياتِنا.

قالت نجوى بضعف:

- أتمنى أن نغادر هذا البلد اللعين.

- لا يا نجوى، لو لفظك وطنُك، فلن تجدي بديلًا.

- رغبتي في السفر تزداد.

- لا سفر إلا بعد الزواج.

- زواج؟!

- نعم.

- لم يخطر ببالي، ولا حتى في رصيف الأحلام.

- كلُّ أحلامنا مخنوقة، يديرها خالك من خلف مكتبه.

- إلى متى؟

بكت نجوى على كتف أمِّي، خرجت من المستشفى ومن الحزب الحاكم، تلعن خالي، وتتمنى زوال النظام.

بعد التخرُّج، بدأت عملي كمدير مكتب لخالي في جهاز الأمن، لا أدري كيف صِرتُ نقيبَ أمنٍ؟ لم أكن أعلم طبيعةَ عملي، ولم يخطرْ ببالي ما علمت.

اشتريتُ سيارةً جميلةً من مالِ الدولة، يبدأ عملي في الصباح، وينتهي في المساءِ في وقتٍ متأخر، كان من صميمِ عملي تنسيق مواعيد خالي، وإجراء اتصالاتٍ مُختلفة، ومراجعة تقاريرٍ أمنية، حتى كان ذاك اليوم.

كنتُ قد تأخرّت قليلًا عن الحضور لمكتبي، الشوارع مزدحمة، ومزاجي في أسوأ حالاتِه، دلفت لمكتبي ووجدت خالي يجلس عليه، يُدخِّن سيجارته، ويتصفّح صحيفةً سياسية.

ما إن شَعَر بوجودي، حتى صَرخَ في وجهي:

- أين أنت؟

قلت بقلق:

- الطريق زحمة، و..

قاطعني بحنق هائل:

- وهل تعلم السبب؟

- مُجرّد ازدحام عادي، يحدث في كلّ بلد.

- لأنّك سكرتير، لا ضابط أمن.

أمعّن في إهانتي، بلعتُ رغبتي في الرد، قلت له:

- أقوم بعملي على أكملِ وجه، ولا أدري سبب غضبك؟!

دخل مكتبَه، دخلت خلفه، وأغلقتُ البابَ، جلست قبالته، فنَهرَني قائلًا:

- لا تجلس، انهض، واستمع للأوامر.

شعرت بسموم الخوفِ يلفح جلدي، نهضتُ ونظرت إليه، قال بغضب:

- هناك مناطق ملتهبة في العاصمة، دعوات للعصيان والإضراب والتظاهر في جميع الجامعات والمدارس والأحياء، وأنت تجلس في مكتبك الفخم دون إحساس بالمسئولية.

انتابني شعورٌ غريبٌ، تمنيّت أن تنشق الأرض من تحتي وتبتلعني، أعلم تمامًا ما يرمي إليه، هو لا يعاتبني، بطريقة ملتوية يضع على رقبتي مسئوليةَ إخمادِ الثورة، ولا يجرؤ على مواجهتي، لذا يتعمَّد توبيخي دون وجه حق.

حاولت امتصاص غضبِه، قائلًا:

- ما علاقتي بالأمر؟!

قال وهو يجلد ذاته جلدًا خفيفًا، ويجلدني بشدّة:

- يبدو أنّني أخطأتُ في اختياري لك في إدارة مكتبي، ما تقوم به الآن يُمكن أن يقوم به أيُّ طالب ثانوي، أو شابة متوسطة الجمال حاصلة على دبلوم مكتبات.

- ماذا تعني؟!

- أعني أنّك ضابطٌ برتبةِ نقيب في جهاز الأمن، هل تعي ذلك؟

ثم أردف بسرعة حتى لا تهرب فكرته من فكِّ اللحظة.

- ليتك تساعدني على اعتقالِ النشطاء، مع تقريرٍ أمني مُفصَّل وبشكل دقيق عن حياة كلِّ واحد منهم، كلّ تفاصيل حياتهم، السياسية، والاجتماعية، ونشاطاتهم الثقافية، وحتى علاقاتهم العاطفية، أرجو التركيز على طبيعةِ تكوينِ شخصياتِهم، نقاط الضعف والقوّة، أحلامهم، نزعاتهم، ميولهم، حساباتهم البنكية، وحسابات مواقع التواصل.

بدأت تنكشف طبيعة عملي التي حاولت مِرارًا تناسيها وتجاوزها، كنت أبغض أن أكون عينًا على الثوَّار، قلت له:

- بكلِّ سرور.

أشعل سيجارة، قال بحماسٍ هائلٍ:

- لا أريد عملًا تقليديًّا.

- فهمت.

- سيقوم المقدِّم حسن بتدريبك، وسوف يزوِّدك بكلِّ ما تحتاجه.

- وماذا عن عملي هنا، في المكتب؟

- عملك خارج المكتب هو الأهم.

★★★



I am Sorry !!!!!


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

٥

أيَّة حماقة ارتكبها بقبولي لهذه المُهّمة؟ بل أي مصير هذا الّذي يُجبرني أن أكون جاسوسًا على شعبي؟ ماذا لو رفضت؟ أو قدّمت له تقاريرَ مزيّفة؟ تُرى هل سيكتشف أمري ويعاقبني وينفّذ تهديده لي؟ هل أقف مع ضميري ضدّ وظيفتي؟ ام أخسر ضميري من أجل الوظيفة؟ تملّكتني الحيرة، تذكّرت أهلي، وسليمان ونادية، طافت بي أحلامي، تمنيّت لو كنت رسامًا أرسم بريشتي لوحة الأمل، أو نحاتًا أنقش على صخر أمنياتي تمثال الصمود، ها أنا الآن ضابط أمن، أقف ضدّ نفسي وشعبي، من أجل حماية النظام.

صرت مسئول الأمن بمنطقة (الكلاكلات)، كانت مهمّتي تتلخّص في كشف أسماء النشطاء والمنتمين للأحزاب السياسية التي تعمل على إسقاط النظام، ومتابعتهم وتعطيل دورهم بأيّ شكل.

حاولت الاعتراض على العمل في منطقة (الكلاكلات)، قلت لخالي:

- ليس من المنطق أن تُكلّفني بمهمّة عسيرة بهذا السفور، كأنّك تضعني في مواجهة مع أبناء الحي الّذي عشت فيه.

ابتسم قائلًا:

- وكيف سنعرف ولاءك، لو لم نضعك في هذه المواجهة؟

- لي طلب؟

- ما هو؟

- سأقوم باستئجار عقار مفروش في منطقة بعيدة، و..

قاطعني بهدوء:

- لا، المطلوب منك أن تعيش بشكل طبيعي وسط أعدائك وأعداء الوطن، غيابك عن الحي سيثير الشكوك حولك.

قلت مستنكرًا:

- ووجودي بالحي قد يكشفني بأسرع ممّا أتوقع.

- رجل الأمن يجب أن يخوض الصعاب ويواجه المستحيل، كن حذرًا ويقظًا، واعلم أنّك في مُهمّة وطنية، والمطلوب منك هو القضاء على أعداء الوطن.

انسحبت بهدوء، وصلت للبيت، وقفت طويلًا مع نفسي أتأمّل جملته الأخيرة، "أعداء الوطن"، لماذا يظن الحاكم أنّ الّذين يختلفون معه هم أعداء الوطن؟ لماذا يكون الوطن عملة بوجهٍ واحد في نظر الحاكم؟ يقذف بها في هواء الغش ويجعلها ترتطم على أرض النفاق بوجه مكتوب عليه "أنا وحدي الوطن"، لماذا يختزل الحاكم مفهوم السلطة السياسية في الوطن؟ ولماذا يجعل من المختلفين معه أعداءً للوطن؟!

من هم أعداء الوطن؟! ومن أصدقاؤه؟! هل يعقل أن تكون نادية من أعداء الوطن؟ ويكون خالي من أصدقائه؟!

طافت نادية بخاطري، معاناتها اليومية في سبيل لقمة عيش شريفة، إصرارها على تغيير واقعها وواقع الوطن للأفضل، عذابها وعذاب أسرتها في الحصول على أبسط احتياجات الحياة، ثُم قارنتها بمستوى حياة خالي

وحياتي، سألت نفسي، تُرى كم نادية في هذا الوطن؟ وكم ضابطًا في جهاز الأمن؟ من هم أعداء الوطن الحقيقيون؟ ومن هم أصدقاؤه المخلصون؟

صدر أمر اعتقال لأحد المُعلّمين، حين قرأت الاسم شعرت برعشة هائلة، أعدت قراءة الاسم مرّات عديدة، هو نفسه، أستاذي بمدرسة الكلاكلة صنقعت المتوسّطة، تملّكني الذعر، كيف يستقيم اعتقالي لرجلٍ تعلّمت على يديه الكثير؟ هل كان يؤهلني لاعتقاله يومًا ما؟ هل هذا جزاء الإحسان؟ وضعت كوب الماء على المنضدة، أشعلت سيجارة، إناء التمر يغويني أكثر، مددتُ يدي والتقطت خمس تمرات، بصقتهنّ جميعًا، اللعنة، سبقني السوس إليهنّ، لم يترك لي سوى نوى متآمر وأشلاء تمر متهالك، صرت أبصق أكثر، كأنّ جيوش السوس حطّت على شفتيّ وتكاثرت.

فتحت نافذتي، تأملّت الفراغ، الكون يغطّ في نومٍ عميق، كلّ شيء ينبئ بالقلق، ذهبت لغرفة المقدّم حسن، وجدته نصف عارٍ يشاهد التلفاز، سألني:

- ما بك يا أشرف؟

توتّرت قليلًا، هل أصارحه؟ قلت له بصوت واهن:

- أستاذي في قائمة المعتقلين.

ضحك حدّ القهقّهة، وقال:

- وأين المشكلة؟

- أقول لك أستاذي في قائمة المعتقلين.

- وأنا أقول لك، وأين المشكلة؟

- هل تفعلها يا حسن؟

عاود ضحكه، وقال:

- حين كنت ملازمًا، اعتقلت ابن خالتي وعذّبته بيدي.

فغرت فاه الدهشة:

- ابن خالتك؟

- وفي مقام أخي، قضينا طفولتنا معًا في بيت واحد، نأكل من نفس قدح الطعام، نتبادل ملابسنا، وننام في نفس الغرفة، ماتت خالتي وهو صغير، قامت أُمّي بتربيته، ويبدو أنّها لم تُحسن التربية.

- كأنّني لا أعرفك؟

- العمل بجهاز الأمن يجعلك لا تعرف نفسك، تنساها وتنسى ذكرياتك، تُعيد مرارًا اكتشاف ذاتك، تضطرب أحيانًا وفي النهاية تستقر على حبّ عملك وواجبك تجاه الوطن.

- لا أتحدّث عن طبيعة عملنا، ولا عن الكسب السياسي، ولا عن الدفاع عن النظام، أنا أتحدّث عن ضميرك الإنساني، كيف سمحت لنفسك بتعذيب إنسان في مقام أخيك؟

- ما الحياة إلا أقدار، أقدارنا تجعلنا نقف أحيانًا ضد رغباتنا، من تصفه بأنّه في مقام أخي هو محض خائن عميل، رهن عقله ودينه لأفكار اشتراكية بالية تتعارض مع الإسلام.

- وهل اعتقال الناس وتعذيبهم يتفق مع الإسلام؟

- نحن مضطرون لهذا، تمنيت لو تركوا لنا شئون الحكم حتى لا يجبرونا على اعتقالهم وتعذيبهم.

- ومن أين لنا الحق في الاستئثار على شئون الحكم؟

- هو صراع، أزلي وأبدي، صراع من أجل الدّين، ومن أجل البقاء.

- أيّ دين؟

- الإسلام.

- دعنا من هذا الخطاب، فلا أظنك تحتاج إليه معي.

- حسنًا، دعنا نسميه صراع السلطة، أو حتى قانون الغاب، في النهاية البقاء فيه للأصلح والأقوى.

- هل تعتقد أنّك باعتقالك لابن خالتك وتعذيبه صرت أقوى، وأصلح؟

- وهل تعتقد أنّه كان سيتركني لو كنت مكانه؟

- لا أعلم.

- أنا أعلم، لن يتركني، وربما تخلّص مِنّي.

- ما حاجتنا لهذا الصراع؟ لماذا لا نعيش في هدوء.؟

- حين تكون في قلب المعركة، لا تسأل، بل قاتل وبشراسة، لو تركت الزناد وتابعت أسئلة الحياة وفلسفاتها، ستفقد سلاحك، وستلاحقك الهزائم وتموت.

- وماذا بعد الموت؟ كيف نلاقي اللّه بكلّ هذه الجرائم؟

- جرائم صغيرة، نتقرّب بها إلى الله، من أجل الحفاظ على الدين والمجتمع.

- أكاد لا أصدّق ما تقول، نتقرّب إلى الله بالقتل والتعذيب والتشريد؟ وهل القتل في نظرك جريمة صغيرة؟

- حكى لي أبي كيف كانت فترة الستينيّات، بيوت الدعارة مفتوحة في وضح النهار على مصراعيها، يقف الرجال في صفوفها كما لو أنّها صفوف لبيع الخبز، وهناك مصانع للبيرة تحت سمع وبصر الدولة، ونساء كاسيات عاريات، وحفلات صاخبة ومُجون.

- كانت هناك بيوت دعارة، ولم يكن هناك دارًا للأيتام كدار المايقوما، كان الشارع غير منضبط شكليًا، ولكنّه أكثر قربًا إلى الأخلاق.

- الدين يأمرنا بسد الذرائع، ولا يلزمنا بالنتائج.

- النتائج هي المقاصد، أليس كذلك؟

- في كلّ دول العالم هناك توجّه لنظام الحكم، هناك خطوط عامة ترسم سياسة الدولة، ونحن دولة إسلامية، لا نقبل بالمجاهرة بسوء الأخلاق، لا أنكر أنّ تجربتنا بها أخطاء، وبالمقابل أرى صواب الحكم الإسلامي.

- أحكي لي عن ابن خالتك، أين هو الآن؟

- هاجر لأوروبا، تزوّج بفرنسية، وأنجب منها.

- كيف سمحتم له بالخروج؟ هل غافلكم؟

- بل ساعدته على ذلك.

- بعلم الدولة؟

- نعم، طلبت من خالك السماح لي بمساعدته للخروج، فسمح لي بذلك.

- تكفيرًا لذنبك تجاهه؟

- لا، بل هي تقديرات مختلفة.

- كيف؟!

- سأشرح لك، لأنّك لا تزال تحت التمرين، ولأنّني المسئول عن تدريبك، في بعض الأحيان يكون السماح للمعارضين بالخروج من أجل تقليل ضرر تواجدهم بالداخل، وفي بعض الأحيان نفضّل بقاءهم تحت رحمتنا وأعيننا، لأنّ خطر خروجهم أشد.

- كيف كان تقديرك لخروج ابن خالتك؟

- كان هدفي، وكنت مسئولًا عن متابعته، استنزف كثيرًا من وقتي ووقت الدولة ومالها، وبحكم صلتي به، كنت أعلم طموحه وأحلامه، لذا مهّدت له طريق الخروج.

- ليتهم كلّهم يخرجون، ويتركونا نحكم المؤيدين فقط.

- خطأ، تذكّر دائمًا، أنّنا في صراع لا ينتهي، صراع البقاء، لو تركناهم كلّهم يخرجون من الباب، فسيعودون من ثقبه، أو من النوافذ.

- هل تخشى عودتهم.

- أخشى ثأرهم.

نظرت لعينيه، تفادى نظراتي، وأمعن في الغموض. سألته:

- هل أنت من وضع قائمة المطلوب اعتقالهم؟

- وتعمّدت أن يكون هدفك هو أستاذك الّذي تُحب.

- يا للغرابة.

- هكذا وضع لي خالك ابن خالتي هدفًا لي لاختباري، وهكذا قرّرت اختبارك.

- هل تنتقم من خالي عن طريقي؟

- بالعكس، أردّ بك دين خالك، فلولا اختباره لي لما صرت ضابط أمن بهذا النجاح.

شعرت كأنّه يكذب، نظرت لعينيه مُجدّدًا، لم يتفادى نظراتي، بل واجهني بها، كان حائرًا وخائفًا، حاولت فهم حيرته وخوفه، هل خوفه منّي لأنّني ابن أخت رئيسه؟ وربما انقلِب عليه يومًا مّا؟ أم هو يخشى فشلي، الّذي بالضرورة يعكس فشله في تدريبي؟

حاولت كثيرًا التقرّب إليه وفشلت، كان يصدّني بحرص، يجعل بيني وبينه مسافة، لا ينفر ولا يتودّد، يحسب كلماته بدقّة، كلّ شيء فيه مصنوع كأنّه دمية بلا إحساس، ذكاؤه مصنوع، ومشاعره مصنوعة، وطريقة تفكيره مُبرمجة، يتناقش كما لو أنّه يقرأ من كتاب التنظيم، حتى انفعالاته جوفاء، دائم الوجوم، أبواب ضحكته موصدة، حين يفتح مصراعيها لا تقف إلا عند صرير القهقهة، مجرد فقاعات ضحك، تخلو من أطياف الفرح، لا تتمهّل، بل تتلاشى سريعًا وتختفي.

- هل تخشى انتقام ابن خالتك؟

- لا، لم يعلم بأنّني من قام باعتقاله وتعذيبه، كان مغمض العينين، لم يرَني.

- هل شعر بخيانتك له؟

- بالعكس، كان سعيدًا بمساعدتي له بخروجه من السودان.

- ليّتني مكانه.

- خطأ يا أشرف، هذه دولتنا نحن، بذلنا الأرواح لتأسيسها لا لمغادرتها، نحن من يحكمها، والحاكم لا يهاجر، بل يزداد تمسّكًا بالحكم.

- لا أجد متعة في الحُكم.

- وأنا لا أجد متعة تعادل الحُكم.

- أخشى أن يسقط هذا النظام يومًا مّا، ولا نجد سوى لعنات تلاحقنا في حياتنا وقبورنا.

بدأ عليه الضيق، قال بحسم:

- القوّة بالخارج، تنتظرك لتنفيذ الاعتقالات، تذكّر، يجب عليك إخفاء وجهك طوال الوقت، ولا تتردّد في تعذيبه لانتزاع المعلومات.

كنت أكره فكرة التعذيب، لا يجدر بي الحط من قدر البشر، توسّلت إليه قائلًا:

- ولماذا التعذيب؟ ماذا لو تعاون وتبرّع بكلّ المعلومات.

- لابدّ من استعمال سلاح التعذيب حتى لو قال كلّ ما عنده، التعذيب ليس فقط وسيلة ضغط للحصول على معلومات، بل إمعانًا في احتقار كلّ من يقف في وجه مشروعنا الإسلامي، حتى يخاف ويسلك طريق الصالحين.

لم أتذوّق طعم النوم ليلتها، عانيت السهد، رأيت بعيني كيف كان أستاذي يحاول الفرار، داهمته قوّة مدجّجة بالسلاح في بيته، كنت بداخل عربة تُراقب عملية الاعتقال، أخفيت وجهي وأمرت باخفاء وجهه، رأيته بجلباب نوم مهترئ، مرتديًا نظارته الطبيّة، أعزل في مواجهة قوّة كبيرة من جهاز الأمن، كنت أُدير كلّ شيء، واتممت مهمّتي بنجاح، لم يكن التعذيب وانتزاع معلوماته أمرًا يسيرًا على نفسي، حاولت أن أكون رحيمًا في تعذيبي،

كنت أبكي من أعماقي من فكرة التعذيب، كُلّما سمعت آهاته كُلّما نزفت روحي أكثر، كان يبكي دموعًا وكانت عيناي تقطر دمًا، كيف يُعذّب المرء مُعلّمه؟ كيف يتحوّل التلميذ لمحض جلّاد؟ رأيته واقفًا طوال الليل، معصوب العينين، وجهه على الحائط ويديه مرفوعة، وأحيانًا يلعب معه الجنود لعبة (أرنب نُط)، إمعانًا في إهانته، لعبة تجعله يمشي كما الحيوانات ويتشبّه بهم، كنت اتمزّق كُلّما ردّد خلف العساكر أصوات الحيوانات.

في النهار بدأت التحقيق معه، تأكدّت أن عينيه معصوبتان ويديه خلفه مربوطتان بحبل متين، كان هادئًا ومتماسكًا لأقصى حد، سألني عن سبب اعتقاله، وعن التهمة الموجّهة إليه، ارتبكت قليلًا، فأنا نفسي لا أعرف تهمته، قلت له بأدب مزعوم:

- لا تهمة في مواجهتك، هذا مُجرّد تعارف.

قال باستنكار:

- تعارف؟ وأنا معصوب ومقيّد؟

- أو حوار بين الحاكم والمحكوم.

- تقصد بين التلميذ ومعلّمه.

صُعقت، تركته وخرجت سريعًا من غرفة التحقيق، أشعلت سيجارة، ازداد قلقي مع انتشار الدخان، تُرى هل عرفني؟ لا أظن، يبدو أنّه يُمارس حيلة ذكية يستدر بها عطفي، فهو حتمًا لن يخسر شيئًا لو افترض أنّني من طلابه، فمن المؤكد أنّه لا يعلم عدد طلّابه الكثيرين الّذين تعلّموا على

يديه. وبالمقابل يمكن أن يخفف وطأة اعتقاله لو كنت أحد طُلابه وتعاطفت معه.

رميت عقب سيجارتي على الأرض، دست عليها بقوّة كأنّني اسحقها، بعد فترة قصيرة قررت استئناف التحقيق، احتجت لوقت حتى أتخلّص من مشاعري تجاهه، إذ لا يجدر بي التعاطف مع هدفي حتى لو كان هدفي هو مُعلّمي الّذي أحب.

رجعت لغرفة التحقيقات، وسألته:

- لماذا تقف ضد النظام؟

قال بجرأة:

- لنفس الحق الّذي جعلك تقف أنت مع النظام.

لم أتوقّع منّه هذا الرد، قلت بعصبية:

- أنت هنا من أجل تحقيق رسمي، تخيّر ردودك، حتى لا اضطر لتعذيبك.

- لقد قمت بتعذيبي بالفعل قبل أن تبدأ تحقيقك.

قرّرت تعذيبه نفسيًا، فهذه الوسيلة تتناسب معي أكثر من التعذيب الجسدي، قمت بوضعه في ركن غرفة شديدة الضيق، وطلبت من بعض العساكر أن يتناوبوا عليه وايهامه بأنّه في طريقه لحبل المشنقة، تعمّدت أن أغيب عنه أسبوعًا كاملًا، هذا أفضل لكِلانا، هي فترة كافية لاختبار صلابته واختبار قوّتي النفسية على تعذيبه، في صباح يوم وبعد مرور أسبوع على اعتقاله، علمت أنّه تلقّى تعذيبًا جسديًا بأوامر من حسن، وأنّه يرفض الطعام، ذهبت لزيارته في غرفة الحجز، بدأت قواه تخور، كان شديد

التوتّر، يبدو أنّ آثار التعذيب النفسي أقل تأثيرًا من التعذيب الجسدي، لا يزال معصوب العينين، سألته:

- هل تحتاج لشئ؟

قال بوضوح:

- نعم، أحتاج حُريّتي.

- لك ذلك، ولكن بمقابل.

- ما هو؟

- كل الأسماء التي تتعامل معها لإسقاط النظام.

- ليس لديّ أسماء، لا أعرف احدًا ولا أتعامل مع أحد.

- سيطول وجودك معنا.

- كلّ شيء بيد اللّٰه.

- يمكنني قتلك إن شئت.

قال وهو يرفع رأسه لأعلى:

- لو ظننت نفسك الحجّاج بن يوسف، فما أسعدني بمصير سعيد بن جبير.

خرجت غاضبًا دون أن أنبس، تركته لمصيره، طلبت له طعامًا وشرابًا، وشدّدت على الاستمرار في تعذيبه النفسي، ومنعت عنه التعذيب الجسدي، جلست وحيدًا في مكتبي، بحثت عن سبب يجعلني أكرهه لأتوازن نفسيًا فلم أجد، صموده جعله يكبر في نظري أكثر، كان مُشبعًا بيقين نادر، يبدو أنّه أقوى منّي برغم وقوعه في قبضتي، كيف تبدّلت مواقع القوّة

والانكسار؟ كيف يهزمني وهو تحت رحمتي؟ من أيّة طينة هذا البطل؟! قالها بوضوح، كلُّ شيءٍ بيد اللّه، وقال ما هو أشد إيلامًا، قال إنّني كمثل الحجّاج بن يوسف، وهو في مقام سعيد بن جبير، سمعت عن الحجّاج، ولكن من هو سعيد؟

سألت حسن:

- من هو سعيد بن جبير؟

- هل هو في قائمة المعتقلين؟

ضحكتُ، قائلًا:

- نعم هو كذلك، ولكنها قائمة تخص الحجّاج بن يوسف.

تمهّل قليلًا لاستيعاب السؤال، ثُمّ ضجّت حنجرته بقهقهته المصنوعة:

- نعم، تذكّرت قصة سعيد بن جبير مع الحجّاج بن يوسف.

- هاتها لأسمعها.

- ومالك بهذه القصة؟

- أرجوك، كف عن السؤال، وجاوبني، ما قصة سعيد والحجّاج؟

- قتل الحجّاج رجلًا فاضلًا اسمه سعيد، ومات الحجّاج بعد هذه الجريمة بفترة قصيرة، قال سعيد للحجّاج، ستموت بميتتي، أو شيئًا من هذا، وفي سكرات الموت صاح الحجّاج" مالي وسعيد بن جبير، مالي وسعيد بن جبير" حتى فاضت روحه الطاهرة.

- طاهرة!!!

- بلى، طاهرة.

- لا يعنيني الحجّاج، ولا يعنيني سعيد، بل تعنيني المصائر.

- ماذا تعني؟

قالها لي هشام، لو كنت تظن نفسك الحجّاج بن يوسف، فما أسعدني بمصير سعيد بن جبير، لماذا قال لي ذلك؟

- هل هدّدته بالقتل؟

- للأسف.

- ولماذا لم تقتله؟

- هل جننت يا حسن، تدعوني للقتل حتى ألقى مصير الحجّاج، لست أنا من يُسفك الدم الحرام.

قال ضاحكًا:

- ليتك مثل الحجّاج، كان يحمل قلب أسد.

- بل هو قاتل.

- وفي عهده توسّعت الدولة الإسلامية، شهدت ازدهارًا ونموًّا.

- هل هذا مُبرّرٌ للقتل؟

- نحن كدولة لنا حلمنا بتثبيت أركان الإسلام، لنا مشروعنا المُمتد، وهناك ألف حجّاج يحمي دولتنا، وهناك قِلّة أمثال سعيد يهدّدون مشروعنا.

- لا أرى تبريرًا لقتل نفس مؤمنة.

- إلا بالحق.

- هل هذا حق؟

- لو رأيت ثمار الفتوحات الإسلامية على يد الحجّاج، لما التفت لقصة سعيد، فلكل قضية عظمى ضحايا، وبرغم مكانة سعيد، إلا أنّ مكانة الحجّاج أعظم.

بدأت أميل لفكرة حسن، وبرغم تخوّفي النفسي من القتل، إلا أنني أجد في قصة الحجّاج عبرة وعظة وإلهامًا، عكس ما يراه مُعلّمي، كُلّ ما أتمناه أن لا اضطّر أن أكون حجّاجًا ولا أن يكون هو أو غيره، سعيد بن جبير.

★★★




AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

٦

منذ بداية عملي في جهاز المخابرات، اتخذت من أمام قسم شرطة الكلاكلة مرأبًا لسيارتي، ليس من الحكمة قيادة سيارة فارهة في ضواحي الكلاكلة وتعريض هويّتي للخطر، وبعد توقيف السيّارة أمشي على قدميّ حتى منعطف (لفّة صنقعت)، حيث تجلس نادية، أرتشف معها شاي الإلفة، وقهوة الوعد وزنجبيل الأحلام.

لم أسأل نفسي عن طبيعة إحساسي تجاه نادية، هل هو الحُب؟ هذا الإحساس الساحر كيف يبدأ؟ في لحظة تلتقطه العين، وترهف له الأذن، ويخفق له القلب، ثُمّ يدنو ويتسرّب إلى كلّ الخلايا، لا تعرف كيف يجتاحك؟ يعلو ويرتطم، يغوص ويطفو، لا يستقر ولا ينزوي، حريقًا لا ينطفئ ولا يهدأ.

كيمياء خفيّة، بمختلف العناصر والتراكيب، تجعلك منتصرًا ومهزومًا، هادئًا وصاخبًا، مُضطربًا ومطمئنًا، هائمًا دون تحليق أو سقوط، ثُمّ يُسيطّر عليك بغتةً، ويمنحك الأمان.

أيقنت أنّ منطق الحُب هو اللامنطق، وقانونه هو الاستسلام والتسليم، كأنّني فريسة للعشق، في فك شغفٍ هائل.

كلّ أسبوع تسوقني قدماي إلى السوق معصوب الإرادة، أجلس بقربها وهي تبيع الشاي، روائح القهوة والزنجبيل والنعناع تفوح تحت وطأة جمر

اللهفة، يديها تتحايل على اللهب ليزداد اشتعالا، وقلبي يتحرّق أكثر من الجمر الخامل، كلّ شيء حولي يتّقد ولا يخبو، أضرمتْ النار في قلبي وجلستْ عليه، شعرت بالحصار، وأيقنت أنّ الحبّ شعور لا يُفسّر، كيف لضابط أمن ثريّ مثلي يعشق مناضلة فقيرة مثلها؟ كيف لها بعشقي وهي الآن ضحيّتي في وطن محتل بخوذات العسكر واللّحى؟ كيف نصنع مستقبلنا تحت وطأة الزيف والخداع؟ كيف ننسج أحلامنا وكلّ الظروف تتآمر ضدّنا؟ قيود جهاز الأمن الّذي أنتمي إليه، سياط القهر، آلام الجوع والمرض، كلّها تقف ضدّنا.

تأملتّها، عيناها تقاوم كلّ شيء، تقاوم النعاس والفقر، والألم، والإنهيار.

سألتها:

- إلى متى هذا الظلم؟

قالت وعيناها تعاني من احتقان الدموع:

- أسوأ أنواع الظلم، هو ظلم النظام السياسي، ظلمٌ لا تستطيع قبوله ولا ردّه، ولا حتى تخفيفه.

- أشعر أننّي جسد غارق في حنوط العجز.

- العجز إحساس قاتل، لا يليق بنا.

- وهل حياة القهر تليق بنا؟

- مِمّ تعاني؟

- أعاني من رؤية معاناتك.

انفرجت شفتاها رغم إحساس الضيق، ثم انهمر نهر ابتسامتها يحتوينا بأمواجه الهادرة.

قالت لي وقلبها يتمزّق:

- هل علمت باعتقال أستاذ هشام؟

شعرت بمدى قبحي، قلت بادعاء كاذب:

- متى؟ ولماذا؟

- منذ اسبوع.

- هشام أستاذي ويهمّني أمره، أتمنى أن يكون بخير.

- أعلم عجزك عن فعل شيء، فهو معتقل لدى جهاز المجرمين، عليهم لعنات الأرض والسماء.

شعرت بغثيان ورغبة في القيئ، قلت وقلبي ينفطر:

- تعلمين أنّني لا أملك فعل شيء، ليتني أستطيع مساعدته.

- أعلم ذلك، فأنت من شرفاء القوّات المسلحة، تعاني مِمّا يعانيه الشعب.

- صدقيني، ربحك من بيع الشاي ربما يتجاوز مُرتّبي ومخصصاتي.

- أين سيارتك يا أشرف؟

قلت بخبث:

- بعتها منذ فترة.

- لماذا؟

- زادت احتياجات أختي الجامعية، وكان لابدّ من بيعها.

- لأنّك ضابط وطني شريف، لو كنت في جهاز الأمن، لما اضطررت لبيعها، ولربما كنت تقود الآن سيارة فخمة.

طعنتني بخنجر الحق، استأذنت منها ونهضت، ذهبت إلى البيت، ألعن خالي وجهاز الأمن.

في اليوم التالي ذهبت لارتشاف الشاي معها، قرّرت محاصرتها، كنت مفتونًا بالجلوس بقربها، وكانت قطعة سكر تذوب في كوبي وتزداد حلاوة مع كلّ رشفة ومذاق، قلت لها:

- ماذا ننتظر؟

رفعت حاجبيها، داهمها غموض السؤال، قالت بدلال ممزوج بالغنج:

- ماذا تعني؟

قلت كمن يشيءُ بسِر الكون:

- أغمضي عينيك.

أغمضت عينيها باستسلام، فتحتهما حين سمعت صوتًا معدنيًا يتحرّك داخل كوب الشاي، فتحت عينيها بلهفة، وجدتني أُخرجُ خاتمًا ذهبيًا من قاعِ الكوبِ، مغموسًا ببقايا الشاي الأحمر، زغردت ملامحها بفرح فادح، حين مددتُ لها الخاتم، تراجعت فرحتها، لسعها خوف عابر، قالت بهدوء:

- أشرف، أرجوك، لا تتسرّع.

- أرجوك أنتِ، لا تتسرعي بالرفض.

- لن أقبل هدايا.

- هذا خاتم، أودّ لو يطوّق قلبك.

- أنا أرملة.

- أعلم ذلك.

- وأم.

- أولادك، أولادي.

- ماذنبك؟

- ليت الأمر بيدي.

- بمقدورك الزواج ببنت، بلا مسئولية، ومن مقامك.

- حبي لك هو أسمى مقام.

- مجتمعنا لا يقبل، أنت ضابط في الجيش، وأنا بائعة شاي بائسة، لا أود أن أكون وصمة في جبين نجاحك.

- أنتِ معلّمة، وهذا يكفي.

- حين أبيع الشاي أنسى أنّني معلّمة.

- حبي لكِ يجعلك في نظري ملكة.

- برغم فرحتي بحبك، إلا أنّني لا أقبل أن أكون أنانية بقبول هذا الحُب، شيئًا مّا يقف بيننا، لا أدري ما هو؟

- هل مهنتي تقف عائقًا بيننا؟

- ربّما، وربّما قيّدت ظروفي استعدادي النفسي للحب، لست مهيأة للحب يا أشرف.

- ترفضين الفكرة والمبدأ، أم ترفضين أشرف؟

- أحتاج مزيدًا من الأمان.

- لن أستسلم.

- ضع الخاتم على إصبعي.

وضعته على إصبعها، ضمّت الخاتم إليها، قبّلته بشفتيها، وأخرجته، ووضعته على إصبعي، قائلة:

- هذا الخاتم لي، احفظه عندك؛ حتى يحين موعده.

قبّلت الخاتم، مسحت عليه حتى أطمئنّ لوجوده، ومضيت مُطوّقًا بأمل يتوهّج في يدي.

افترقنا، لا يزال حديثها يملأ أذني، تحسسّت الخاتم، عليه آثار يدها، وشفتيها، وبقايا الشاي، تأكّدت أنّ نادية تبادلني الحُب، كلّ شيء فيها مختلف، حديثها، صمتها، تقاطيعها، جلستها، انحناؤها، صمودها وأحلامها، قالت بعفوية، إنّني ضابط جيش وهي بائعة شاي، تستنكر فوارقنا الاجتماعية، ترفع من قدري وتضعني في مرتبة النبلاء، وتحطّ من قدرها لمستوى البؤس، وهي لا تعلم من فينا أعلى مكانة، ماذا لو اكتشفت حقيقتي؟ كيف سيكون ردّ فعلها؟ هل يصلح ضابط أمن في نظام فاسد لحُبّ مناضلة جسورة؟

كيف وقعت في حبها؟ وكيف خدعتها؟ لا أدري، إحساسي نحوها خارج عن إرادتي، منذ أن رأيتها انتابني استقطاب لا فكاك منه، حدّثني قطب شغفي الموجب بحالة جذب مغناطيسي نحو قطبها المتنافر، ما بيننا حالة تخدير طويلة، لا أفيق منها إلا وأدخل في خدرها مرّة أخرى.

تململتُ في فراشي طويلًا، طار النوم وحلّق في سماء الظنون، هواجسي من اكتشاف نادية لحقيقتي تزداد، حتمًا ستعرف هويّتي يومًا مّا، كيف أعدّ ورقة دفاعٍ وقتها؟ ماذا لو تطوّر الأمر وتعاملت معي كعدوّ للثورة يجب

محاسبته؟ ماذا لو سقط النظام، وتبدّل الموقف؟ تُرى كيف ستعاملني وقتها؟ هل ستقبل حبيبًا برتبة أمن بالمعاش؟ أم ستعاملني كمجرم حرب؟ وتقتص مِنّي؟

نمت بصعوبة، استيقظت على استدعاء عاجل، ذهبت للمكتب، قابلت المقدّم حسن في ردهة الانتظار، قال بتوتّر:

- يبدو أنّ الأستاذ هشام على درجة عالية من الخطورة.

- كيف عرفت؟

- وصلتنا أنباء عن عزم أنصاره القيام بمظاهرات تطالب بإطلاق سراحه.

- وما العمل؟

- الحصول على المعلومات منه بأسرع وقت، وبأيَّة طريقة، قبل إطلاق سراحه.

- لا يستجيب.

ضحك ضحكته الجوفاء، وقال:

- بأسرع وقت، وبأيَّة طريقة، سيّدي الحجّاج.

تبدو إشارته واضحة، جعلتني في حيرة من أمري، سألته والخوف سحابة تحجب رؤيتي:

- هل تعني القتل؟

- لا، الموت والحياة بيد اللّه، نحن لا نقتل، نحن نؤدّي عملنا، لو مات فهذا قدره.

★★★


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing
أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

٧

خرجت أعداد كبيرة في مناطق الكلاكلات تطالب بإطلاق سراح هشام، محبّة طلابه ضيّقت خياراتي في التعامل معه، أمرت بانتزاع شاربه، ونتف إبطيه، ثُمّ جعلته أصلعًا، قلّموا أظافره من جذورها، وهو يتجاسر ويقاوم ويزداد عنادًا.

تمّ قمع المظاهرات بعنف، أعدادٌ كبيرة من الجرحى والمعتقلين، وهشام يرفض الإدلاء بأيَّةِ معلومات، والوضع يتفاقم ويزداد خطورة.

اجتمعت مع خالي والمقدّم حسن، واتفقنا على إلهاء المحتجّين ومواصلة قمعهم ومضاعفة جرعات التعذيب لهشام.

في المساء، وفي طريقي للبيت، توقفّت في سوق (لفّة الكلاكلة)، بقايا إطارات السيارات المحروقة تنتشر في الطرقات، روائحها الكريهة تفوح، ما أسوأ هذه الرائحة، رائحة بلاستيك مذاب في أتون لهب، رائحة خانقة، نفّاذة، تصيب البصر بالكآبة، والأنف بالغم، كلّما شممت هذه الرائحة، كلّما شعرت بدنو أجلي، تأمّلت مكان نادية، لا شيء سوى بقايا فوضى، وأشلاء أشلاء.

قضيت ساعتين في البيت، أطمئن قلبي على أحوال أهلي، وعدت للمكتب.

رغبتي في رؤية نادية تزداد، هل تفتقدني كما أفتقدها؟ ما شعورها نحوي؟ فجأة تذكّرت أنّني رأيت غسّان من ضمن المعتقلين، هل عرفني؟ تُرى من غسّان؟ ما علاقته بهشام؟ وبنادية؟ جاء حسن لمكتبي وهو يلهث، نقل لي ببساطة خبر موت هشام، مات معلّمي هشام تحت التعذيب، مهّدت لقتله، وقتله حسن بيده، ضاعف من جرعات تعذيبه حتى قضى عليه، قتلته مع سبق الحقد والكراهية، قتلت بيدي من علّمني الحرف وحبّ الحياة، قتلت من رسم بداخلي خريطة الوطن، وأغدق عليّ بكرم عِلمه الفيّاض، تذكّرت كيف كان يشرح لنا دروس التاريخ، كيف كان يحكي عن الطغاة، وقصص موتهم، كيف كان يُشجّعنا على الاستفادة من دروس التاريخ وعِبره.

أذكر كيف كان يتمرّد أحيانًا على المنهج، ويغني لنا أبياتًا من قصيدة الشاعر أبو القاسم الشابي، " إلى طغاة العالم"، لا تزال طريقته في قراءة أبيات الشعر وترنيمها ترّن في أذنيّ:

"ألا أيها الظالم..... المُستبّد.

حبيب الظلام عدوّ.....الحياه.

سخرت بأنّات شعب ضعيف.

وكفّك مخضوبة من.. دماه.

وسرت تشوّه سِحر الوجود.

وتبذر شوك الأسى في رباه".

هل كان أستاذ هشام يعلم وقتها أنَّ مِن بين صفوفِ طُلَّابِه مَن تَخضَّبت كفَّاهُ مِن دمائه؟ هل كان يعلم أنَّه سعيد بن جبير، وأنّني حجّاجه

الثّقفي؟ كيف شوّهتْ يدي سِحر وجوده؟ أي ذنب ارتكبت؟ حرمت الكون من محبيه وعلمه دون وجه حق، سلبته حياته، فقط لأنني أدافع عن نظام بغيض، وما المقابل؟ حفنة مال؟ أم رتبة إضافية على كتفيّ؟ صرت بيني وبين نفسي أردِّدُ مقولةَ الحجّاجِ، "مالي وهشام، مالي وهشام"، هل تتحقّق نبوءته؟ هل تبقّت أيامًا معدودة في حياتي؟

كفكّفت دموعي وطلبت من حسن التحقيق مع غسّان، وافق على الفور، كان يُدرك أنّ حالتي النفسية لا تسمح لي بالعمل، حسن ساديّ الطباع، يجد متعة هائلة في تعذيب المعتقلين، يحرص كثيرًا على صلاة الجماعة، على جبينه قُرّة صلاة شديدة البروز، يبدو أنّه يعتني بها ويرعاها بشكل خاص، على منضدته كتب الفقه والسيرة، وتفاسير القرآن، لا يتحدّث كثيرًا في شئونه الخاصة، ولا يهتم إلا بعمله، ميكافيلي السلوك، يرى الغايات ولا تهمه الوسائل البشعة في تحقيقها، يتلهّف للنتائج، ويحرص على إرضاء رؤسائه.

بعد ساعات زارني حسن في مكتبي، قال لي وهو يحك ذقنه بطريقة عصبية:

- احتجاجات كبيرة وسط طُلّاب الجامعات، وبداية إضرابات في عدد من المستشفيات الحكومية.

- لماذا لا نحاور المحتجّين؟

- الحوار قرار سياسي بيد السلطة السياسية، نحن دورنا مختلف تمامًا.

- أتمنى أن يكون لنا دور آخر غير البطش بخصومنا.

- نحن محاصرون، خارجيًا وداخليًا، كُلّما كثر أعداؤنا، كُلّما زاد يقيني على قوّة مشروعنا الإسلامي ونجاحه.

- وماذا عن الفساد والقتل، والسرقة والتشريد؟

- محض شائعات، هل سمعت عن شحنات المخدرات؟ هل تصدّق أنّ المعارضة اتهمت بعضًا من قياداتنا بتهمة ترويجها، هل يعقل هذا؟

- يبدو أنّك تجد مُبرّرات لكل فعل، ردودك دومًا على لسانك.

- نحن في معركة، والمعارك تُستخدم فيها الشائعات من الخصوم حين يعجزون عن المواجهة.

- هل هذا ينفي وجود الفساد؟

- هذا الشعب غريب التكوين، حاصر الرئيس نميري بشائعة الفساد، وبعد سقوطه اكتشفنا حجم الشائعات ضدّه، هل تصدّق أنّ نميري وبعد مرور سنوات طويلة على وفاته لم تثبت إدانته في أيّ قضية فساد.

كنت أخشى نقاشي معه، فهو لا يهزمني بقوّة المنطق، بل يهزمني لأنّني أرغب في الهزيمة، قررّت كثيرًا التوقّف عن نقاشي معه، فهو مغسول الدماغ، وما جدوى النقاش طالما نخدم في نفس جهاز الأمن؟ ونقوم بنفس العمل؟ ثمة أشياء في شخصية حسن توفّر لي غطاءً نفسيًّا يحميني من عذاب الضمير، لا أدري هل يُدرك أنّه يمنحني هذا الغطاء؟ أم هي رغبتي في البحث عن هذا الغطاء؟

سألته:

- هل أكملت تحقيقك مع غسان؟

- أدلى بمعلومات هائلة عن تنظيم المُعلمين.

- هكذا! ببساطة؟

- ما أن تنزع ملابس خصمك، وتعتدي عليه جنسيًا، حتى يخاف ويرتعش و ..

قاطعته بشهقة فلتت مني:

- هل اغتصبته؟

ضحك ضحكته الصفراء، وقال:

- هذا هو الفرق بيننا، بين نقيب ومقدّم.

- أين ضميرك يا حسن؟

- دفنته في قبر الحجّاج.

- بماذا اعترف؟

- بكل أعضاء التنظيم، بهشام ومناهل، وعبد الرحمن، والشفيع، ونادية.

فلتت منّي صرخة:

- نادية!!

- هل تعرفها؟

تملّصت من لهفتي عليها، وادعيت الغباء هاربًا من سؤاله، بسؤال:

- هل هي مُعلّمة؟

- ماذا دهاك يا أشرف، كلّهم مُعلّمون، هذا تنظيم الشيوعيّين والعلمانيّين وحزب الأمّة والاتحادي والبعث، وبقيّة الأحزاب الهالكة داخل نقابتهم المزعومة.

- برئاسة من؟ هشام؟

- كنت أعتقد ذلك، ولكن يبدو لي أنّ نادية تُدير الأمر بذكاء.

بدأ عرق خوفي الداخلي يتصبّب، حاولت إخفاء لهفتي عليها قائلًا:

- كيف؟

- العاهرة الملعونة، تتخذ من بيع الشاي غطاءً لنشاطها السياسي.

تمنيّت لو قطعت لسانه، بأي حق يصف حبيبتي بصفة العُهر؟ قلت له ودقّات قلبي تترنّح في خفقانها:

- دع الأمر لي.

- لا يا أشرف، الدولة تتهاوى، التقرير الأمني وصل لأعلى مستوى في القيادة الأمنية والسياسية، والتنفيذية.

- بسبب بائعة شاي!!

- بسبب تعاملك العاطفي مع خصومنا، عشرة أيام وأنت تحاول الحصول على معلومات من هشام، تحصّلت أنا عليها في ساعتين.

حاولت إبعاد نادية عن فكيّه بأيّ شكل، قائلًا:

- تبدو لي نادية بسيطة وبائسة.

- هؤلاء هم الشيوعيّون، يدّعون البؤس والفقر، ويتذمّرون لأتفه الأسباب، يدهنون الحياة بدهان الإنسانية ويرفعون شعارات منظمات حقوق الإنسان، وهم في الحقيقة كفرة فجرة، يستخدمون كافة الوسائل للقضاء على دولة الإسلام.

مسكتُ أعصابيَ بقوّة، معرفتي الطويلة بنادية تجعل كلماته محضَ هُراءٍ، قلت له:

- هل تعني أنَّها ليست فقيرة؟

- لا يعنيني وضعها الاجتماعي، ما يعنيني هو خطورة الوضع، انتشرت حُمَّى الاحتجاجات كعدوى في كلِّ ولايات السودان.

- هل صدر أمر اعتقالها؟

- أحكمت خطّتي الأمنية ضدّها، عاهرة مثلها لا يليق بها شرف الاعتقال السياسي، يكفي أن نقبض عليها بجريمةٍ جنائية، كتهمة البيع دون ترخيصٍ كغطاءٍ لممارستِها الدعارة.

كتمت أنفاسيَ المتلاحقة، قائلًا:

- ثُمّ ماذا؟

قهقه، قائلًا:

- سنُجري عليها كشف عذرية، بالتأكيد ستكون أجمل من غسان.

أصابني الدوارُ، حاولت التماسك وفشلت، خطرت لي فكرة مّا، تركتها تحت نار عقلي المُلتهب حتى تنضج بهدوء.

يبدو أنَّ حظي العاثر يُلازمني كظلِّي، أقتل من أُحبّ بيدي، وتشهد أذني تهديدًا باغتصابِ حبيبتي، ماذا لو سقط النظام؟! ما مصيري وقتها؟! أيُّ طاغيةٍ لا محالةَ زائلٌ، ونحن البشر زائلون، بأيِّ وجهٍ أقابل ربّي؟ وبأيّة شفاعةٍ؟ مَن يشفع لي يوم لا ينفع مالٌ ولا بَنون؟ ومن يزيل عنِّي عَناءَ الألم؟

تأكدّت أنّ نادية لم تُعتقل بَعد، وكان لابدَّ من التحرّك سريعًا لإنقاذها، طرقتُ بابَها ليلًا، خوفها من الطارقِ جعلها تتمهَّل، عاودت الطرق، وهَمَستُ لها باسمي، فتحتْ البابَ، دلفت سريعًا، قلت لها وأنفاسي تتهدَّج:

- يجب عليكم مُغادرةُ المكانِ سَريعًا.

قالت وعيناها تشتعلُ بالخوفِ والرهبةِ:

- إلى أين؟!

- أنتم في حمايتي.

- مِمَّن؟!

- جهاز الأمن.

- وكيف عرفت أنّ..

قاطعتها بلهجةٍ آمرة:

- لا وقتَ للأسئلة، تحرّكي سريعًا، حين نكون في أمان، سيكون لدينا مُتَّسعًا من الحديث.

- وأبي؟

- متى خرج من المعتقل؟

- قبل أيام.

- سنأخذه معنا.

ركبوا معي سيارتي، قرّرت استضافتهم في مزرعةِ خالي في (سوبا)، هذا أنسب مكانٍ في هذه الظروف، كنت أعلم أنّها مخاطرة كبيرة، وكنت بلا خيارٍ آخر.

ظللنا صامتين طوال الطريق، نادية وأطفالها جلوس في المِقعدِ الخَلفي، وأبوها يجلسُ بجانبي مُكفهِر الوَجه، بعد سكوت طويل، قال لي:

- من أنت يا ابني؟!

أربكني السؤال، لم يخطر ببالي هذا السؤال، كيف أقدّم له نفسي، فكّرت قليلًا، وقلت له:

- اسمي أشرف، أبي عُمر، محاسبٌ شيوعي، مات منذ سنوات متأثرًا بحُب الوطن.

كما لو أنهك ذاكرتَه بعناءِ التفكيرِ، قال بعد فترة صمتٍ:

- عرفته، عاش نقيًّا، ورَحَل جسورًا.

- طاب مقامك يا عمّي.

- كيف مات أبوك؟ تضاربت الأقوال في قصّة موته!

الطريقُ طويل، لا رغبة لي في اجترار مأساة أبي، لكنّها فرصة في التقرّب منه؛ لَعلَّ وعَسَى أن تقتربَ المسافات عبره لقلبها، قلت له:

- قصته طويلة، لو تأذن لي بزيارتك في بيتك.

صَمَت طويلًا، يبدو أنّ ردّي لم يُعجبه، قال بتوتّر:

- زيارتك لنا في هذا الوقت غير مريحة، إلى أين نمضي؟!

- إلى مخبأ من عيون جهاز الأمن.

- هل نادية في خطر؟!

- للأسف.

- تعوّدنا على مُداهمات كلابِ الأمن، لكنّها المرّة الأولى التي ننجو فيها بهذا الشكل.

- لا تقلق.

وصلنا المزرعةَ، أيقظت الحارسَ، قلت له إنّها أوامر خالي، أوهمته أنّهم تحت حمايته، وضعت بين يدي نادية مبلغًا يكفيهم لعدّةِ شهور، ومبلغًا آخر للحارسِ، طلبت منه حُسن استضافتِهم، وأمرته بكتمانِ الأمر، ومَضيت.

في صباح اليوم التالي، بدأت الاحتجاجات تزداد، تعالت الأصوات مطالبةً برحيلِ النظام، كانت الهتافات قويّةً، وكنت بيني وبين نفسي أعلنت انضمامي التام للثورةِ، وناديت في سرِّي بسقوطِ هذا النظامِ الفاسد.

قابلت حسن نهارًا، قدّم لي قائمة المطلوبين، قائمة طويلة، راجعتها سريعًا، وحفظت بعضَ الأسماء، ابتسمت حين قرأت اسم نادية، وكانت دهشتي حين وجدت اسم سليمان في ذيلِ القائمة.

بدأ حسن يستعرض خطّةَ تنفيذ أمرِ الاعتقالات، كنت مشغولًا في كيفية تعجيزه عنها، قال بحماسٍ بغيض:

- سنبدأ المداهمة في تمام منتصفِ الليلِ.

قلت له:

- الاعتقالات تزيد من التصعيد.

- لا حلَّ سوى إحكامِ قبضتِنا الأمنيةِ.

- إطفاء النيران بطريقة خاطئة، يُلهبها أكثر.

- وما الطريقة المثلى في نظرك؟

- إزالة أسباب الاحتقان.

- مثل ماذا؟!

- إعلان الحريَّات، و ..

قاطعني بضحكته الصَّدئة:

- هذا حديثٌ فات أوانه، نحن على ظهر مركبٍ يغرق، والبحر عاصف، وأنت تتحدّث عن الحريّات؟!

قلت له محاولًا تحيّيده:

- أخشى الغرق.

صَمَت طويلًا، تأمّلت وجهه، شعرت كأنّه إنسان آخر، كلُّ شيءٍ فيه يَخبو، غابت ضحكته الصفراء، وتحوّلت لابتسامةٍ هالِكة، لا شَكَّ أنّه يُعاني من صراعاتٍ شتى، كان لوحةً للهزيمةِ، عيناه باهتة، وصوته ضعيف، قال بوَهنٍ:

- لا أُخفي عليك سرًّا، يبدو أنّها النهاية.

- لماذا ندفع ثمن دفاعنا عن أخطاءِ غيرِنا.

- هناك صراعٌ شديد في أعلى مستويات السلطة، والانهيار وشيك، لا أملَ لنا سوى مُقاومة السُّقوط.

كنت أعلم بصعوبة تحيّيده، قلت له بادعاء:

- فعلًا يبدو أنّ أملنا الأخير هو مقاومة السقوط، استأذنت منه، وذهبت للبيتِ على أن أعودَ مَساءً، في الطريقِ اتصلت بسليمان، أخبرته بضرورةِ الاختباءِ والاتصالِ بالأسماءِ التي على قائمة الاعتقالِ وتحذيرهم.

اشتعلت المظاهرات الليلية في مناطق مختلفة من العاصمة والولايات، خرجَت قوات أمنية كبيرة لقمعِها، توزّعت لـ(أم درمان)، و(الخرطوم)، و(بحري).

تسرَّب خبر تنفيذِ الاعتقالات في الكلاكلات، ذهبتُ مع المقدِّم حسن والرائد يوسف؛ للتنفيذ، قوامنا قوّة كبيرة من الجنود، لم نجد أحدًا من المطلوبين، كان وقع المفاجأةِ على حسن كبيرًا، بدأتْ سحائب الشك تتجمَّع حولَه ضدِّي، عيناه تتلألآن ببريقٍ غامضٍ، وكأنَّه يتحاشَى سؤالي، تلعّثمت قليلًا، وقلت له:

- كيف حدث هذا؟!

افترستني نظراته، بريقُ عينيهِ الغامض يفتك بي، قال بتوجُّس:

- حسِّي الأمني يقول، أنَّ ثمة وشاية حقيرة حدثت، ولكن كيف؟! ومَن؟

حاولت تهدئته، حقنته بمصل التبرير البائس:

- هؤلاء سياسيون مدرَّبون، من المؤكد أنّهم يتمتّعون بحسٍّ أمنيٍّ أعلى منَّا.

قال بحزم:

- لا يا أشرف، لا، هذا الأمر يبدو لي محض وشاية، هناك طابور خامس في صفوفِنا.

لم ينبس يوسف، بدا شديد الحذر، وفجأة طلب من الجنودِ العودة لبيوتِ المطلوبين للاعتقال، واعتقال من يصادفونهم كرهائن.

اتصلتُ بخالي، وطلبت منه التدخّل، فرفَض فكرة الرهائن، أرغم يوسف على التراجع عن فكرته، وطمأنه بأنّه سيتولَّى التحقيق في الأمر.

كاد حسن أن يموتَ غيظًا، ويوسف لا يكف عن التدخين والسُّباب.

في طريقِ عودتنا لمكاتب جهازِ الأمنِ، عرّجنا لمنطقةِ (بُرّي) بأمر يوسف، الهتافات الليلية تعلو، حشودٌ هائلةٌ تُعاند الليل، هتافاتهم تهزُّ خيوطَ الظلامِ:

"حُريَّة، سلام، وعدالة، والثورة خيار الشعب".

" الدم، بالدم، يا كلاب الأمن".

" لن ترتاح يا سفاح".

جُنَّ جنونُ يوسف، أخرجَ سلاحَه وأطلقَ الرَّصاصَ على المتظاهرين، قتلَ عددًا منهم، تبعه حسن بإطلاقِ الرصاص، وقتل بعض الثّوار، شكوكه حولي جعلته يطالبني بقتل المتظاهرين، رفضتُ بإصرارٍ، تفرّق المتظاهرون وهم يحملون الجثثَ بصعوبة، وهتافاتهم تعلو:

"الدم بالدم يا كلاب الأمن". رجعنا للمقر، وجدنا خالي في غاية القلق، اجتمعنا بمكتبه، قال بتوتّر:

- كيف عرفَ جميع المطلوبين بموعدِ المداهمة؟

قال يوسف ووجهه يغلي من الغضب:

- لو سألت أشرف، ربما يُجيبك.

حاول خالي صفعَه على وجهه، صَدَّ صفعته بتراجعه للوراءِ، وكانت كلُّ الدلائل ضدِّي، هي فرصتي للانتقام من يوسف، قلت له، ورغبتي في التشفّي تتضاعف:

- ولماذا لا تكن أنت يا يوسف؟

قال حسن وهو يُطبطب على الموقف:

- لا أظنُّه يوسف، حَدسي يقول إنَّ بيننا واشيًا لا نعرفه.

أخرجتُ سلاحيَ، شهرته في وجههما، ابتعدت بعيدًا في أقصى ركنِ المكتبِ، قلت بتحدٍ، مُستقويًا بخالي، وبفرضية خير وسيلة للدفاع هي الهجوم:

- أنا أيضًا أقول إنَّ بيننا واشيًا حقيرًا، وربّما واشيان، أو أكثر.

لا أدري كيف تصاعد الموقف بهذه السرعة، ووجدتني محض مُبتلٍ يختار العومَ في بحرِ الدِّماء، تعمّدت رفع ثقة خالي؛ بتذكيره برباط الدَمِ المُقدّس بيننا في مواجهة حسن ويوسف، وفي نفس الوقت أتخلّص منهما ومن بطشهما للشرفاء، وإخماد نار الظنون.

صاح خالي بجنونٍ، اخفض سلاحَك يا أشرف، تجاهلت نداءَه، أطلقت رصاصة اخترقت رأس حسن، وأخرى في صدر يوسف، صاح خالي بدهشةٍ وخوف:

- ماذا فعلت يا مجنون؟!!

قلت له وجسدي يرتجف:

- سمعتهما يهمسان ضدَّك، حاولا الصيد في الماءِ العَكِر.

قال وعيناه ترتعشان:

- حسن! يوسف!

- تأكدتُ أنّهما ينويان التخلُّص مِنّا، وكان لابدَّ من سبقهما.

عيناه ترفضان تصديقي، لم يقتنعْ بقتلي لهما، لم أتركْ له فرصةَ التفكير، كنّا وحدنا نواجه الأمر، مسؤول بجهازِ الأمنِ، وابن اختِه، وبينهما جُثّتان هامدتان برُتبتي مقدِّم ورائد.

قال خالي وهو يتماثل لقَبول الواقع:

- ماذا نفعل بالجثتين؟!

- مثلما نفعل دومًا بجثث الضحايا.

- الوضع مُختلف يا أشرف.

- ما الحل؟!

- قتلهما الثوّار، أو قتلا بعضهما.

تصاعدت الأصوات حولَنا، أصواتُ الرصاصِ أثارتْ خوفَ جنودِ الجهازِ، خرجَ لهم خالي شاهرًا كذبته السَّاطعة، قائلًا:

- أطالبكم بالهدوء، تُوفي المقدِّم حسن والرائد يوسف في تبادل لإطلاق النار بينهما، النقيب أشرف هو المسؤول من الجنودِ إلى حين إشعارٍ آخر، ثُمّ خرج وهو يزفر أنفاسَ الضيقِ.

★★★




AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

٨

لم يتقبَّلْ أهلُ حسن ويوسف تبريرَ مقتلِهما، رفضوا أسباب الوفاةِ المذكورة في التقرير الّذي كتبه خالي، وبعد دفنهما أصرُّوا على معرفةِ القاتل، رفعوا شكوى ضدَّ خالي لوزير الداخلية، ومُدير عام قوات الشرطة، ومدير جهاز الأمن، طالبوا بتحقيق سريع في الأمر.

جُنَّ جنون خالي، قال بغضب:

- أنت السبب، طيلة حياتي المهنية لم أتورَّطْ في قضيةٍ مع رؤسائي.

قلت له بثبات:

- رفضك لاعتقال أهالي المطلوبين كرهائن؛ جعل حسن ويوسف يشكَّان في أمرِنا.

ضَرَب بيده على سطح مكتبه، كعادته حين يغضب، قائلًا:

- ولماذا اتصلت بي وقتها لتسألني؟!

كان لابدَّ من كذبةٍ تُخرجني من بئرِ هذه الورطة، تعلَّقتُ بدلوِ كِذبتي، قائلًا:

- لأنَّه إجراءٌ خاطئٌ يَصعب تفادي خطورَتِه، اعتقال مجموعةٍ كرهائن ومِن حَيٍّ ثائرٍ، والمطلوبون للاعتقالِ طُلقاء، يزيد الاحتقان.

وقبل مَنحه فرصة ليبلَع فيها كذبتي الخاسرة، مهَّدتُ لكذبتي الثانية، قائلًا:

- وهناك سَبب آخر.

قال بغضب:

- ما هو؟!

لابدَّ من مبررات قوّية لإقناع خالي؛ حتى لا يشك في انتمائي، فبئرُ هذه الورطةِ عميقٌ، قلت له:

- لاحظتُ منذ مُدّةٍ أنهما يُحاولان توريطَك في قضايا فَسادٍ.

قال بخوفٍ حاول منعه من الظهور، فخرج بين نبراتِ صوتِه:

- فساد؟!

- نعم.

- مِن أيِّ نوعٍ؟!

- لا أدري.

كنتُ على يقينٍ تامٍّ أنَّ خاليَ فاسدٌ، طريقةُ قتلِه لأبي، وسُوءُ أخلاقِه، شكَّلا تُربةً خِصبةً لنموّ فَسادِه، لم أكنْ أعلم طبيعةَ هذا الفسادِ، فلا بأسَ مِن زرعِ فتنةٍ في تُربةِ الشَّكِّ، بدَلَ تركِها تَبور.

بدَا عليه القلقُ، يبدو أنَّ كِذبتي تسري الآنَ في عقلِه، قال بصوتٍ مبحوحٍ:

- أنتَ سَنَدي يا أشرف، وثقتي فيك بلا حدود.

لأوَّل مرّة في حياتي أراهُ ضعيفًا مَهزوزًا، بموت حسن ويوسف، ماتَ سِرُّ كذِبِي عليهما، خالي يعلم أنَّه من المستحيل التأكّد من صحة كلامي، فكان لا خيار أمامه سوى تصديقي، وكانت فرصتي لاستغلال ضعفه، قلت له بخبث:

- أنت في مقامِ أبي.

شعر بخبثِ العبارة، فبرغم حفاوة الكلمة، إلا أنَّها تُعمِّق تذكيره بأنَّه قاتلُ أبي، قال بخبثٍ مُتبادل:

- يُعجبني ذكاؤك.

لابدَّ مِن طرقِ حَديدِ اللؤمِ وهو سَاخن، قلت له:

- يبدو أنَّ سُقوطَ النظامِ بات وشيكًا، كيف تستطيع تأمينَ مُستقبلي؟!

فَهم أسلوبي الجديد في التعامل معه، قال:

- اطمئن، دعنا نخرج من هذه الورطةِ أولًا.

- ورطةُ مُستقبلي أكبر، قتلتُ ضابطين أمامَك لحمايتنا، وأسرتي بلا رجلٍ غيري.

اتصل بشخصٍ اسمه وليد، طلب منه تحويلَ عقارٍ باسمي، وبعدها رجعَت طبيعة خالي العدائية، كأنَّه يقول لي، هذه أوَّل وأخر مرَّةٍ أسمحُ لك بابتزازي، قال بصرامةٍ:

- خلال أسبوع سينتهي وليد من إجراءات نقل ملكية عقارٍ باسمك في (كافوري)، لكن بشرط.

- ما هو؟!

- المطلوب تقريرٌ طبيٌّ مِن الطبيبِ الشرعيِّ المسئولِ يُثبت، أو يوضّح بشكل مّا أنَّ الرصاصَ انطلقَ مِن فوَّهةِ مُسدَّسينِ مُختلفينِ، وأنَّ حسن ويوسف هُما الجناةُ والضَّحايا.

- أعتقد أنَّ تقارير الوفاةِ الطبيةِ مُجرَّد تقارير فنيَّةٍ لا تشرح كلَّ التفاصيل.

- أعلم ذلك، وواجبك شرح ما حدثَ للطبيبِ الشرعي، وإجباره على كتابةِ تقريرٍ فنِّيٍّ يتماشى مع رغبتِنا.

- فهمت.

- ويجب أن تفهم أن فشلك في هذا الأمر سيعلِّقك على حَبل المِشنقة، فأنت فعليًّا من ارتكبَ هذه الجريمة.

- أرجوا أن تمدَّني بكلِّ معلوماتِ هذا الطبيبِ.

فتَحَ درجَ مكتبِه، وأخرجَ ورقةً مطويَّةً بعنايةٍ، قدَّمها لي قائلًا:

- ستجد كلَّ معلومةٍ تحتاجها عن حياته في هذه الورقة، حذارِ أن ينكشفَ أمرُك، رقبتك قبل رقبتي مُعلَّقةٌ على هذا التقريرِ.

- اطمئن.

- أقترحُ أن تقومَ بزيارتِه في البيت أوَّلًا، ابحث عن مدخلٍ مُناسبٍ لبَدءِ الحديثِ، لا تتسرَّع، ولا تدُر حولَ فكرتِك، امنحه الأمانَ، اطلب منه التقريرَ، ثُمَّ قَدِّم له هديَّتك في شكلِ مالٍ يكفيه لشراءِ سَيَّارةٍ، أو قِطعةِ أرضٍ، أو حتى بيتٍ، لو اعترض، هدِّده تهديدًا واضحًا، ثّمَّ اترك له مساحةً للتراجعِ.

- ماذا لو هدَّدني بفضحي.

- في هذه الحالةِ، ترحَّم عليه، واجعل ضحاياك ثلاثَ جُثث.

- أكرهُ القَتلَ.

- دعني أسألكَ، هل تكره قتل الآخرين، أم تُحب حياتَك؟ أيُّهما أكثر قيمة عِندَك؟

شعرت بضيق هائل، هل وصل به السوء أن يساوم خيارات حياتي بهذا السؤال؟ إمَّا قاتلٌ أو مقتولٌ، إمَّا وحشٌ يقتلُ الآخرين، أو ضحيَّةٌ تطأها أقدامُ الأوغادِ أمثاله، هذا هو النظام الحاكم، يَستمدُّ قانون بقائِه من شريعةِ الغابِ، وهذا هو قانون العملِ بجهازِ أمنِه الدَّموي، لا توجد به حالة إنسانية في الوسط، تذكَّرت مقولة الحياد، كيف أنَّ المحايدَ ليس بالضرورة ناصر للباطل، بل من المؤكد خذلانُه للحَقِ، ليتني مُحايد هنا، لا أقتل الآخرين، وأحافظ في الوقت نفسه على حياتي.

قبل عملي بجهاز الأمن كنت أكره حالة الحياد، وبعد عملي صِرت أتمنَّى الحيادَ ولا أجدُه.

سألته وأنا أعلم الإجابةَ:

- أظنك سألت أبي هذا السؤال بطريقة مختلفة، ألازلتَ تذكُر إجابتَه؟

انتفض كأسدٍ جائعٍ يَرى فريستَه، أمسكَني من عنقي بقوَّةٍ، وهو يزأر قائلًا:

- لا تنسَ أنَّك مَن قتلَ حسن ويوسف، لا علاقة لقصَّةِ أبيك بهذا الأمر، أنت قتلت بذكاءٍ؛ كي تعيش، وأبوك اختار ميتَتَه بغباءٍ ومات، أيُّكما الخاسرُ؟ وأيُّكما الرَّابحُ؟

تملَّصت منه، قائلًا:

- بأيِّ منطق؟!

- بمنطق الأحداث، اسمعني جيِّدًا يا أشرف، أبوك مات، ولم أقتله، لو كنت أرغب في قتله، لاعتقلته وعذَّبته ورميتُ بجُثَّتِه أمامَ بيتِه، بالعكس، أكرمتُه، وأكرمتكم، تحمَّلتُ نفقاتِكم حتى في وجودِه، وتحمَّلتُها بعد مماتِه، صَنعتُ منك ضَابطَ أمنٍ ناجحًا، وبعد كلِّ هذا تُحاسبني وتتهمني بقتلِ أبيك؟!

بكيتُ، كنت في حيرةٍ من أمر خبثه، قلت له بوضوح:

- أنت فعلًا قتلت أبي، حتى لو بطريقة غير مباشرة؟

- كيف؟!

- بتجويعه.

- لا يا أشرف، كنتَ صغيرًا وقتها، وربَّما لا تذكر التفاصيل بشكلٍ دقيقٍ، لا أدري هل تذكر الطعامَ الَّذي كنت أرسله لكم يوميًّا؟

- نعم.

- هل طلبت من أمك منع الطعام عنه؟

- لا.

- كيف أكون جوَّعته؟

- ضيَّقتَ عليه الحِصارَ، منعتَ عنه الوظيفةَ، خنقتَه بحبلِ الإهانة، و ..

قاطعني بحدَّةٍ:

- لكنّني لم أقتله، كيف أقتل زوج أختي؟! أعترف بخلافي معه، ومهما وصل الخلاف بيننا، لم يخطرْ ببالي قتله، هو من قتلَ نفسَه بحماقتِه، أضربَ عن طعام وفَّرته له في بيته، حتى مات مُنتحرًا.

- بل مات بطلًا.

- حسنًا، مات بطلًا، المهم عندي هو تماسكنا وتمسُّكنا بالحياة، نجاتنا أو موتنا قاب تقريرين أو أدنى.

- لماذا لا تطلب من أيِّ ضابطٍ غيري تنفيذَ هذه المهمةِ؟ وانتزاعَ تقريرِ نجاتِنا من الطبيبِ.

- كيفَ أثق في أحد غيرك بأسرارٍ مُهمةٍ تصل سرّيتها حَدَّ موتِنا معًا، تذكَّر نحن الوحيدان الشاهدان على قتلهما، فلو ثَبُتَ في نتيجةِ التقريرِ الطِّبي أنَّ الرصاصتين انطلقتا من سِلاحٍ واحد، فهذا يعني أنَّه سِلاحك، أو سلاحي، وفي كلتا الحالتين، أحدنا القاتل، والثاني يتستَّر على جريمَتِه، وبحكم علاقةِ الدَّمِ التي تربطنا، فالشكوك حولنا تزداد.

- منصبك الرفيع، وعلاقاتك مع القيادةِ السياسيةِ؛ ستمنحنا طوقَ النَّجاةِ.

- لا أظن! سفينةُ السلطةِ تترنَّح في بحرِ الخَوفِ، والقافزون منها في ازدياد.

- أين وصلت الشكوى؟

- إلى الآن مع وزير الداخلية، ومدير الشرطة، ومدير جهازِ الأمن، ومن المُحتمل أن تصلَ النائبَ العام.

- لابدَّ من التحرُّك سريعًا.

- أشرف، حياتُنا بين يديك.

- لا تقلق.

- لو نجحتَ، لك مكافأةٌ سَخيَّة.

- قبل المكافأة، لي طلب.

- ما هو؟

- لو اضطررتُ للقتلِ في هذه المهمة، ستكون آخر عملية قتلٍ في حياتي.

- لك ذلك.

- وربَّما أتقدَّم باستقالتي.

بلغ به التوتُّر حدَّ أن يكشف أسرارَه لأوَّل مرَّة، قائلًا:

- لا داعي للاستقالة، لاتزال صغيرًا على هذه الكلمةِ، أنا لم أتفوَّه بها حتى الآن، برغم عقاراتي في تركيا، ودبي، والقاهرة، إلا أنَّ عملي هو طوق أماني الوحيد، لو تعثَّرت حياتنا هنا، يُمكننا السفر والتمتُّع بالحياةِ خارج السُّودان.

- لم أتصوَّرْ نفسيَ قاتلًا في يومٍ من الأيامِ، ضميري يُعذِّبني ويَحرمني لذَّة الحياةِ في أيِّ مكان.

- لا عليك يا أشرف، كن واثقًا بأنَّني لن أتخلَّى عنك.

- لا أظن أنَّ هناك مُتسعًا من الوقتِ يَسمح بوعدِك هذا.

- أنا قلقٌ مثلك.

- أحتاج قوَّة ترافقني لزيارة هذا الطبيب، ما اسمه؟

منحني حقيبةً صَغيرةً، قائلًا:

- اسمه نبيل، خذ معك قوَّةً دون أن تشرح لهم طبيعةَ مهمتِك، ستجد في هذه الحقيبة مالًا يكفي لشراء التقرير الطبي.

حاملًا حقيبتي الصغيرة، طرقتُ مساءً بابَ دكتور نبيل، قابلني بكلِّ ترحابٍ، قدَّمت له نفسي بصفةٍ رسميةٍ، دون اسمٍ:

- أنا ضابطٌ بجهاز الأمن والمخابرات.

ارتعش قليلًا، بدَت عليه علاماتُ القَلقِ والخَوفِ، قال بجزعٍ:

- مرحبًا بك!

دلفنا للداخل، بيتُه بسيط كبيوت الشرفاء، يقع في حَيٍّ شَعبيٍّ تعيس، قلت له:

- آسف لزيارتك دون موعدٍ سابق.

حاول التماسكَ، قائلًا:

- لا أظن أنَّ جهازَ الأمنِ يحتاج تبريرًا لزياراته.

ضحكتُ قائلًا:

- لستُ بمهمةٍ رسميةٍ، أتمنى أن تكون زيارةً خفيفةً ولطيفةً، تؤدّي الغرض.

- وما الغرض؟!

- كلُّ خير.

- أتمنى أن تدخل في الموضوع دون مقدمات.

- حسنًا، هناك جثتان في المشرحةِ لضابطين من جهاز الأمن.

قال بخوف:

- أتعني حسن، ويوسف؟!

- نعم.

- فعلًا، ماتا بطلقٍ ناريٍّ.

قلت له بطريقة تدفعه لقبول غرض زيارتي:

- من سلاحين مُختلفين، أليس كذلك؟

- لا، من نفسِ السِّلاح.

قلت له ونظراتي تحاصره، وحروفي تصطكُّ وتضغطُ على أعصابي:

- لا، من سلاحين مختلفين، تقاتلا قتالَ الحَمقى، فقتل كلٌّ منهما الآخرَ.

نظر إلى وجهي بارتيابٍ، وقال:

- كطبيبٍ شَرعيٍّ مُتمرّسٍ، وبفحصي للجثتين فحصًا دقيقًا، وبوقائع لا تخلو من الشَّكِّ، أقول لك جازمًا، أنّهما قُتلا بنفسِ السلاح، وعلى مَسافةٍ قريبةٍ، وفي نفسِ التوقيت.

- ما الَّذي يجعلك تشرع سريعًا في التحقيق؟! وتصل لكلِّ هذه النتائج بسرعة؟

- طبيعة عملي، وخبرتي، و...

قاطعته بحدّةٍ، فتحتُ حقيبتي بسرعة، أخرجت مسدسي وحشرته في جيبي، قائلًا:

- وطبيعةُ عملي وخبرتي تفرض أنَّهما ماتا بسلاحين مختلفين، وقَتل كُلٌّ منهما الآخر.

توقَّف عن الحديثِ، بدأت تظهر عليه علامات الهلعِ والإعياءِ، وصل لمغزى زيارتي، وتبيَّن له خطورةَ الموقفِ.

قال برعبٍ:

- ماذا تعني؟!

- أعني ببساطةٍ أنَّني أنتظر تقريرك الرسمي بأسبابِ الوفاةِ التي ذكرتها لك.

- ما تطلبه مِنيّ يَتنافى مع قَسَمِ المِهنةِ وأخلاقِها.

- مجرَّد تنازلٍ بسيطٍ لا أكثرَ، لن يكلِّفك الكثير، وبالمقابل..

تعمَّدت السكوت قليلًا؛ حتى أجسَّ نَبضَ قبولِه لفكرةِ الرِّشوةِ.

لم يكترثْ، قال بهدوء:

- هذا تقديرك أنت.

ظهر ابنُه، طفلٌ لا يتجاوز العاشرة من العمر، تقاطيع وجهِه تدلُّ على عدم الرضا، بدين، منكوش الشعر، يهرش وجهه بعصبيةٍ، يبدو أنَّه يُعاني من فرطِ النعاس، قال وهو يداري نُعاسَه:

- لدينا ضَيف؟

ناديت عليه باسمه:

- تعال يا هيثم.

اندهش نبيل لمعرفتي باسم ابنِه، جاء هيثم يمشي بصعوبةٍ من فرط الشحوم، صافحته بحرارة كاذبةٍ، قائلًا:

- كيف حالك؟

- أنا بخير، كيف أنت؟

- لست بخير.

قال ببراءةِ الأطفال:

- لماذا؟!

فتحت حقيبتي، أعطيته مالًا يكفي شراء درَّاجةٍ بُخاريةٍ، قلت له:

- نسيت أن أشتري سجائري.

أخذَ المالَ بفرحٍ غامر، صاح فيه نبيل:

- لا يا هيثم.

قلت لهيثم:

- لا داعي للسجائر، أقلعتُ عن التدخينِ قبل لحظات، هذا المال لك، يمكنك أن تشتري به ما تشاء.

تهلَّلت أساريرُه بفرحٍ طفوليٍّ، قال بامتنانٍ:

- شكرًا لك، ثُمُّ هرْوَل سعيدًا بالمال.

ازداد خوفُ نبيل، حين قال:

- كيف عرفتَ اسمه؟!

استعرت ضحكة مصطنعة من مخلّفات ضحكات حسن، قائلًا:

- وأعرف الكثير عنك، أين زوجتك مها، وابنتك المشاغبة نسرين؟ كان من واجبهنَّ الاحتفاء بقدومي.

بلع ريقَه بصعوبةٍ، وقال:

- قُل لي كيف قُتلا؟

كنت أنتظر هذا السؤال، وأعددتُ له إجابتي في ذهني قبل حضوري، قلت له مهدِّدًا:

- قتلتهما، برغم كرمي الشديد، ونُبل أخلاقي، إلا أنّني اضطرِرت لقتلهما، مشكلتي الوحيدة هي كراهيتي لكلِّ من يرفض طلباتي ولا يستجيب لها، فمن قتل مرَّة، أو مرَّتين، لا يتوانى في قتل من يحاول كشف جريمته بتقرير طبِّي سخيف، أظنك يا دكتور تفهم غريزة البقاءِ والمحافظة على النفس أفضل مِنّي.

وصل خوف نبيل ذروته، بدأ يعرق بغزارة، ويمسح وجهَه بيده ويتلعثم، قال بوجل:

- أتُهدِّدني بالقتل؟!

- صدِّقني أنا في حيرةٍ، هل أبدأ بقتل هيثم، ونسرين ومها، وأختم بك، أم العكس؟

شعورٌ غريبٌ حين ترى إنسانًا يشهق شهقة الموت، وهو لا يزال على قيد الحياة، قال بارتياع:

- أرجوك، لا أظن أنَّ الأمر ..

قاطعته بقفلِ فمه، أمسكته بقوّةٍ وخرجت به للشارع، قلت له وسلاحي في بطنِه:

- هل ترى تلك العربة؟ بها جنود مُتعطِّشون للدماء، يحاصرون بيتك، لديهم أوامر باقتحامِه وتحويله ومَن فيه لحطام، لو لم تتعاون معي وتكتب التقرير.

قفلتُ بابَ بيتِه ورجعنا للداخل، قال بارتعاشٍ، ودموعه تملأ عينيه:

- سأكتب لك التقرير.

ابتسمت، قلت له وفي يدي حزمة نقود:

- وسأكون كريمًا معك، أرجو أن تقبل هَديَّتي.

- لا، نفسي لا تقبل.

- حسنًا سأعيد لك الطلب مرَّة أخرى، ولكن بأسلوبٍ مُختلف.

قال بانكسارٍ:

- قبلتُ هداياك.

- حسنًا فعلتَ، متى يمكنني استلام التقرير؟

- في أقرب وقت.

قلت بحزم:

- الآن.

- مستحيل!

- نذهب الآن للمستشفى، تكتب تقريرك وتسلِّمه لي.

- أحتاج وقتًا لصياغته بالطريقة التي تعجبك، ولا تنسَ تقريرَ المعملِ الجنائي.

- لا يعنيني تقريرَ المعملِ الجنائي، سأحرقه بيدي قبل أن تراه.

- وتشعل نارَ الشك والظنون، تأكَّد لو انفضح أمر التقرير ستكون نهايتي بيد غيرك قبل أن تكون بيدك.

- ماذا تعني؟!

- الأمرُ ليس بهذه البساطة التي تتحدَّث بها، تقارير الوفاة تُسلَّم لأهلِ الموتى، لو تشكَّكوا فيها ستتعقد الأمور، ويرفعون دعاوى جنائية، وستبحث الشرطة عنك، وربما أكون وقتها في السجن.

- لذا يجب عليك كتابة تقريرٍ مُحكمٍ.

- التقريرُ المُحكم يتطلَّب وقتًا، وهناك مشكلة أساسية ليست بمقدوري تجاوزها.

- ما هي؟!

- كيفية مطابقة تقرير المعمل الجنائي لتقريري.

- دع الأمر لي.

- لابدَّ من تطابُق تقرير المعملِ الجنائي مع تقريري، تطابقًا في المحتوى مع اختلاف زمنِ صياغةِ التقريرين، على أن يكون تقرير المعمل الجنائي مكتوبًا قبل تقريري بزمن كافٍ، نحتاج تتبُّع الخطوات الرسمية بقنواتها؛ حتى لا يفتضح الأمرُ.

- حسنًا، تبقَّى تحذير أخير.

- ما هو؟

- أية محاولة منك لفضحي وتسريب حديثنا، أو تلفيق التقرير، تعني موتَك ونهاية نسلِك.

- اطمئن، لست بهذا الغباء.

- روحي صارت بين يديك.

- وروحي أيضًا.

فجأة ظهرت مها تحمل بيدها حزمةً من المال وضعتها أمامي، قالت وهي تتمالك نفسها من الخوف الشديد:

- أتوسَّلُ إليك، لا تؤذينا، لا نحتاج لهذا المال، خذ مالك ودعنا وشأننا.

صاح نبيل بأعلى صوته:

- هل جُننتِ يا مها؟

ردَّت بخوف:

- سمعت حديثكما، قلبي يخفق من الخوفِ عليك، وعلى أولادنا.

- كيف تجرؤين على اقتحامِ حديثِنا هكذا؟ من سمح لكِ؟!

بدأت في البكاء، قائلة:

- لن يهدأ لي بالٌ حتى أطمئن على حياتِنا.

أخرجتُ سلاحي وشهرته في وجهِها قائلًا:

- مَرحبًا بكِ عزيزتي مها، انتظرتك طويلًا، ولم تُكرمي ضيافتي بكوبِ شايٍ، أين نسرين؟

احتمت خلفَ نبيل، وبدأت في الصراخِ وهي ترتعش من الهلع.

قلت لنبيل آمرًا:

- انزعِ خمارَها، وكمِّم فمَها سريعًا.

استجاب نبيل، صارت مها تُهمهم، حاولتُ نزع خمارها، ضربها نبيل على يدها، صارت ترتعد وتخبط بقدميها على الأرض بعصبيةٍ، وأصوات صراخ طفليهما تأتي من بعيد، من خلف بابِ غرفةٍ مُغلقةٍ، قلت لها بصوتٍ هامس:

- سأخرج الآن، وإياكِ أن تحاولي الصُّراخ أو خداعي.

ذهبت للبيت، في طريقي اتصلت بخالي، حكيت له بالتفصيل عن حديثي مع دكتور نبيل، وعدني بحل مشكلةِ المعملِ الجنائي سريعًا.

بعد يومين، كان معنا نسخة من تقرير الطبيب الشرعي، نسخة تتطابق مع تقرير المعمل الجنائي، وتثبت أن حسن ويوسف قتلا بعضهما لحظة طيش.

★★★

٩

تنفَّسنا الصَّعداءَ، رجعت حياتُنا لطبيعتها، خالي في شرورِه، وأنا ممزَّع بين الباطلِ والحَقِّ، نصفي مع خالي، ونصفي الآخر مع أبي، عقلي الإجرامي تحت سيطرةِ خالي، وقلبي يخفق لأبي مع هديرِ الثورة.

صار وضعي مُميَّزًا في جهازِ الأمنِ، علاقتي الأسرية بخالي جعلت الجنود والضباط يهابونني، عرفتُ ذلك، وتلذَّذتُ بهذا التميُّز، تعمَّدتُ أحيانًا عَدم أداء التحيَّة العسكريةِ للضُّباط الأعلى رتبة، اختبرت ردودَ أفعالِهم، وتأكدت أنّهم يرتعشون خوفًا مِنّي، ولا يملكون سوى الطاعة، وكان خالي يعلم هذا التميُّز، ويؤيده في الخفاء، بل هو من أسَّسه وصنَعه؛ بهدفِ حمايةِ نفسِه ومصالحِه.

طلب خالي حضوري لمقابلتِه، دلفت للفور، وجدته غارقًا في السكون، يمسك بقلم يقلِّبه بين أصابِعه بحَيْرةٍ مُفتعلة، قال بهدوء:

- اجلس يا أشرف.

جلست، وقلبي مقبوض، قلت له:

- ما بك يا خال؟!

تمعَّن في النظر إلى وجهي، وقال:

- لست راضٍ عن أدائك.

شعرت بإحباط، قلت له:

- ولماذا؟! أهناك شكوى ضدِّي؟!

- تعلم جيدًا مدى تأثيرك على زملائك، وبرغم ذلك، لم تنتبه لما ينقصك.

- ماذا ينقصني؟!

- ولاؤك التنظيمي، حبك لعملِك ينقصه إحساس الانتماء، هذا لو كنت أصلًا تحبّ عملك.

- لست عضوًا بالحركة الإسلامية.

ضرب بيده سطحَ المكتبِ، قال بانفعال:

- ولماذا؟!

- لم أشعر برغبة الانضمام، ثُمَّ أنَّني أخدم الوطن، لا التنظيم.

- خطأ، التنظيم هو الوطن، والوطن هو التنظيم، حين تعكس الحركة الإسلامية أفكار الوطن، حينها يتحوَّل الوطن إلى رسالةٍ تمشي بين الناس، هل تعلم أنَّنا في قيادةِ الجهازِ نَخشى الأصدقاء، قبل الأعداء.

كان في طعمِ حديثِه حسرة ما، ثمة خيبة تطفو على سطح آلامه.

- ما المطلوب؟!

- هذا هو الخطأ الثاني يا أشرف، لا تنتظر الأوامر، ابحث بنفسك عن المطلوب، تجاسر، احسم أمرَ صراعِك الداخلي.

- صراعي الداخلي؟!

- نعم، يجب عليك العمل بحماس أعلى، ابتعد عن العواطف، ولا تنسَ أنَّك سندي، وأنا سندُك، ومصيرنا مُشترك.

- فهمت.

- بقى لي أمر آخر.

- ما هو؟

- نادية.

صُعقت، لم أكن أتوقع أن يعرف قصَّتي معها، قلت له:

- مَن نادية؟

- قبل قليل قلت لك إنَّنا نخشى الأصدقاء قبل الأعداء، أتعتقد أنَّني تقلَّدت هذا المنصب عبثًا؟

- عفوًا يا خال.

- هل تُحبها؟ أو بالأحرى، هل هي تُحبك؟

- بيننا ثقة و..

قاطعني بسرعة، وقال:

- هذا هو المطلوب.

- ماذا تعني؟!

أشعل سيجارةً، نفثَ دُخانَها بشغفٍ، وقال:

- وصلتني أخبار تواصلك معها، جلوسك لساعات مع بائعة شاي عاهرة تعمل على إسقاط الحكم، أمرٌ خطير يا سعادة الرائد.

هي طريقته، أن يقدِّم لك الهدية في طبق رشوة، ويطالبك بثمنها في اللحظة نفسها، حتى ينسيك طعمَ الهديةِ، قلت له دون حماس:

- رائد! ترقية! بهذه السرعة؟!

- هكذا برَّرت لهم ترقيتك السريعة حين سألوني عن طبيعة العلاقة بين الرائد أشرف مع الشيوعية نادية، وكان ردّي أنَّ الرائد أشرف يقوم بمهمة خاصة تحت إشرافي.

ضغط على ترقيتي من تحت أسنانه، وطالبني فورًا بدفع ثمنها بتنفيذ مهمَّته، قلت له:

- ما المطلوب تحديدًا؟!

- كلّ شيء.

- لماذا لا تعتقلها، وتجبرها على الإفصاح عن معلوماتها.

- أسلوب الاعتقال أصبح تقليديًّا قديمًا؛ يجعل من خصمك بطلًا قوميًّا بعد إفراجك عنه، ولا يضمن حصولك على كلِّ ما تريد، وطالما لديك وسيلة أفضل من الاعتقال، لماذا لا نجرِّب أسلوبك؟

بحثت عن مخرج آمن من ورطتي، لم أجد، قلت له:

- نادية ذكيَّة، أتمنى أن تبعد عنِّي من يراقبنا، حتى لا تشعر.

- لك ذلك.

- ولي طلب آخر.

- ما هو؟

- أن تعفيني من الانضمام للحركة الإسلامية.

- سوف أرى نتائج تحقيقاتك مع نادية، وبعدها لكلِّ حادثٍ حديث.

أخرج صورة من مكتبه، وضعها على سطحِ المكتبِ، وقال:

- هل تعرفها؟

تأمَّلت الصورة، قلت:

- لا.

- هذه صورة قيادية في صفوف الطالبات، رفضتْ التعامل مع التحقيقات، وفضَّلتْ أن تعيش بطلة، قدَّمتها هدية لبعضِ جنودي المُخلصين، اغتصبوها، وتركوها تنتحر كبطلةٍ تليق بأوهام النضال.

ضغط على جهاز الكمبيوتر، وبدأ يشاهد ندوة سياسية، مُعلنًا انتهاء اللقاء، قلت له:

- هل هناك أوامر أخرى؟

- لا، كُلِّي لهفة في انتظار تقاريرك.

- لك ذلك.

خرجت من مكتبه وكراهيتي له ولنفسي تزداد، كيف قبلت أن أعيش في هذا المستنقع الآسن؟ ومن أجل ماذا؟! تنازلت كثيرًا من أجل الاستمرار في هذه الوظيفة اللعينة، ولم أتوقَّع أن يُطالبني بالتجسُّسِ على حبيبتي، وأن يختم حديثَه بتهديد اغتصابها، وأن يجعل من نهايتها محض انتحارٍ أليم.

تركت المكتبَ، وذهبت للبيتِ، لي رغبة هائلة للحديث مع أُمِّي، وتناول الغداءَ معها، لعلَّ في حديثها ما يُشفي جراح النفس.

كنت تائهًا، كأنَّني معصوب العينين، شعرت بالدوار، كلُّ شيءٍ حولي يتداعَى، طنينٌ هائلٌ في أذني، كما لو أنَّ كلابَ الكونِ تنبح خلفي، أغمضت عيني عن رؤية نفسي وعالمي القبيح، فتحتهما، تبدو تضاريس الطريق كما الوعر، السَّماء فوقي كفوَّهةِ بركان، والأرض من تحتي كمُنحدر، والناس في الشوارع كما الأشباح، في البيت سألت أمي أن تغفر لي، قالت بألم:

- أغفر لمن؟! لك أم لخالك؟

- لنا معًا، أجبرناكِ على الانكسار، وأطعمناكِ الحرام.

- بالأمس، على حائط بيتنا كتب الثوّار، "الدمُ بالدمِ يا كلاب الأمن"، مسحتها، رجعوا، كتبوا اليوم "سلمية، سلمية، ضدّ الحرامية" واسمك مكتوب تحت كلمة (الحرامية)، وضعتما رأسي على الأرض، هجرنني جاراتي، وأهلي توقَّفن عن زيارتي، ساءت أحوالهنَّ حين تحسَّنت أحوالي، أشحن بوجوههنَّ عنِّي، يهمسن باللعنات، ويتغامزن في حضوري، وأنتما تعيشان على القتل والتعذيب وانتهاك حُرمات الناس.

- أنا أيضًا أتعذَّب، أعاني الوحدة والفراغ، لا أصدقاء، ولا أحباب، حتى زملاء المهنةِ يتعاملون معي بحذر؛ خوفًا من خالي.

- مالك مغموس بالدم الحرام، طيلة حياة أبيك، وحتى وفاته، لم يجلب لنا رزقًا حرامًا، كنت أعيشُ معه بالقليل، راضية ومستورة، وفي منتهى السعادة، رفض أبوك مساعدات خالك لي، وكنت أقبلها على مضض وأنفقها على نفسي، كان أبوك رجلًا جسورًا، وقفَ ضد النظام، انقطع رزقه حتى مماته، لطمت يومها خدَّ الخوف، وشعرت بالوحدة، رحل أبوك وتركني لهذا الشقاء.

- يا للعذاب.

- مأساتي أنَّك ابني الوحيد، بدل أن أرى فيك صورةَ ثائرٍ مُناضلٍ كأبيك، تمثَّل لي وجهك في صورةِ خالِك، وجهًا بلا قيم أو أخلاق.

شعرتُ بكل كلمة نطقتْ بها، كنصلٍ مسمومٍ ينغرس في أحشائي، قلت لها:

- لماذا نقبل بهذا الوضع؟!

- أسألت نفسك؟ أنت الرجل، وبيدك الكثير.

- لن يتركوني لو قدَّمت استقالتي.

- هذا قدرنا، اللهم لا نسألك ردَّ القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه.

- تمَّ ترقيتي لرائد.

- أطلقت زغرودة باهتة، ميِّتة، بلا تعبير، وبصوتٍ ضعيف، كأنَّها تزغرد لخيبتها، قالت:

- ما أتعسنا، حتى الأخبار السعيدة تصيبنا بالاختناق، لو لم تكن ضابط أمن، لاحتفلنا وسط الأهلِ والجيران، ماذا تعني ترقية ورتبة؟ كم جريمة ارتكبتها مقابل ترقيتك؟ كم مرَّة قتلت؟ وكم مرَّة اغتصبت؟ حتى تصل لهذه الرتبة بهذه السرعة؟

- أرجوك، ارحميني.

- ارحمني أنت يا ابني.

- فليرحمنا اللّه جميعًا.

- لماذا لا نغادر الكلاكلة.

- لن يقبل خالي.

- لماذا؟!

- حتى يحكم سيطرته علينا، ويحصارنا للأبد، يرغب أن ندور في فلكِه، وأن نظلَّ تحت سمعه وبصره.

- الوضع صار أكثر خطورة مِمّا يعتقد خالك، الثورة تشتعل كلّ يوم أكثر، بدأ الثوَّار يكتبون على حائط بيتنا، ماذا نتوقَّع منهم غدًا؟ أننتظر حتى يهجموا علينا؟!

- لا أعتقد أنَّهم بهذه الحماقة، أنا المقصود، ولا أحد غيري.

لا يا أشرف، لست وحدك المقصود، التفتُّ للخلف، وجه ندى يرسم تقاطيع الاستياء، قلت لها بهلع:

- ماذا يحدث من ورائي؟

قالت نَدَى وعَيناها حُبلى بالدموع:

- كلُّ يومٍ أجد أطفال الحيِّ خلفي، تارة يهتفون ضدِّي، وتارة ضدَّك.

قلت وقلبي ينفطر حزنًا وغضبًا:

- أطفال الحي! اللعنة.

- لعنة مَن؟ أطفال الحي؟ أم لعناتنا؟

- هل وصل الأمر بالزج بالأطفال في الصراع السياسي؟

- لجان المقاومة والأحياء، تنشط في كلِّ مكان في السودان.

- لا يأبهون، رغم كلِّ القمعِ في مواجهتهم، يُصرِّون على المقاومة.

- أكثر ما أحرجني هو خروج زميلاتي في المظاهرات، طلبوا مِنّي الخروج معهنَّ، وقبل أن أرد عليهنَّ، صِحنَ في وجهي بإنَّني وأسرتي مع النظام، الملايين ضدَّنا يا أشرف، الأطفال والشباب والشيوخ، يخرجون باستمرار ضدَّ النظام، حتى الثوَّار من ذوي الاحتياجات الخاصة، كان بوسعهم عدم الخروج، ولديهم من الأعذار ما يكفي، لكنَّهم خرجوا.

- لابدَّ من مغادرةِ الكلاكلة.

أومأت أُمِّي بالموافقة، حين أردفت نَدَى بسخرية:

- مغادرة! إلى أين؟! هذه ثورة، ثورة عارمة، ستطالنا أيدي الثوَّار في كلِّ مكان.

قلت بحسم:

- لا، لن يعرفوا مكاننا، يُمكنني شراءَ منزلٍ في مكانٍ بعيد، و...

قاطعتني ندى بابتسامتها اللزجة:

- ومدرستي؟ امتحانات الشهادة الثانوية على الأبوابِ، أنسيت أنَّني..

قاطعتها بحزم:

- سأتدبَّر أمر دراستك.

ضحكتها الساخرة تطوِّقني، قالت بحنق:

- كما دبَّر خالي أمر دخولك الكلِّية الحربية، وسَرَق أحلامَك، وحوَّلك من مشروعِ فنانٍ إلى ضابطِ أمنٍ قاتل يُطارد الشُّرفاء ويسحلهم؟ أم كما دبَّر دخول نجوى كُليَّة الصيدلة بالغش؟ لا يا أشرف، هذا النظام سيسقط قريبًا، ولن أسمح لأحد بالعبث بمستقبلي.

صفعتها بقوَّة، قائلًا:

- لن أسمح لكِ بمخاطبتي بهذا الشكل.

لم تتأثَّرْ بالصفعة رغم قوَّتها، مسحت خدَّها ببطء، لا تزال ابتسامتها اللزجة تسيل وتغطي وجهها، قالت بعناد:

- لماذا لا تعتقلني وترتاح، أو تطلق عليَّ كلابك ليغتصبوني أو يقتلوني إن شئت.

مددتُ يدي لصفعها، صدَّتني أمّي، قائلة:

- لا تضربها، واسأل نفسك الأول، هل أخذت الإذن من خالك بمُغادرة الكلاكلة؟

ألجمني السؤال حدَّ الارتباك، تيقَّنت أنَّ مصيرَنا بيدِ خالي، وأنَّني أسدٌ عليهم، وفي حروبي مع خالي محض نعامةٍ خائبة.

ذهبتُ لمكتبي في الصباح، تفقَّدتُ أحوالَ المعتقلين، تحسَّنت أحوالهم بسببي، سرَّبتُ لهم طعامًا جيّدًا في الخفاءِ، وسمحت لهم بالتواصل مع مَن يُحبون خِلسةً، كنت أجد لذَّة خفيَّة في مساعدتِهم، بقدر ما اقترفت يدايَ من آثامٍ تجاههم، بقدر ما كنت سخيًّا معهم، رأيت الدهشة على وجوههم، ظنَّ معظمهم أنَّها حيلة منّي، بدَّدت مخاوفهم بمزيدٍ من السخاءِ، تفرَّست وجوهَهم واحدًا تلو الآخر، تكدَّست شتى المعاني في جباههم، مزيج الإصرار والصمود وحب الوطن، استمتعت بأصواتهم وهي تلهج بالغناء:

"من حقّي أغني لشعبي.

من حق الشعب.... عليّا.

لا بي إيدك تمنع..... قلبي.

ولا قلبي كمان... بي إيديّا."

تمعَّنت معانيَ الكلمات، سمعتها أيام الدراسةِ الجامعيةِ وفتنتني، يطالبون بحقوقِهم في الغناءِ، وهم يغنُّون الآن رغم الأسر، رأيتهم يقلِّدون بشاعتنا تجاههم، يهتفون بصوتٍ واحد، (أرنب نط)، وتتعالى الأصوات

بالضحك والمرحِ، تعجَّبت، كيف يصنعون من ضيقهم وعذاباتهم كلَّ هذا الفرح؟

ازدادَ غيابُ خالي عن جهازِ الأمن، توالت الاضرابات في شَتَّى قطاعاتِ الحياةِ، ارتفعت أسعارُ السِّلعِ والخدمات، وخالي مشغولٌ باجتماعاته مع قادةِ النظام، لا يأتي للجهاز إلَّا نادرًا، ولا يتصل بي إلَّا لدقائق معدودة؛ لمعرفة أحوالَ المُعتقلين، ومتابعة أوضاعهم، سألني عن نادية دون حماس، قلت له لا تقلق، طمأنته كذبًا، أعلم أنَّه مشغولٌ بقضايا أكبر، لم تعد نادية تثير قلقه، النظامُ يتصدَّع ويتهاوَى، يبدو أنَّ خالي صارَ غريقًا في بحرِ الثورةِ الهادر، يبحث مع غيره عن قشةٍ يتعلَّق بها كطوقِ نجاة.

ثُمَّ توالت الأحداث، اشتعلت مواقع التواصل بالدعوة لمظاهرات تتزامن مع كلِّ مُدنِ السُّودان، وعواصمِ العالم، اشتدَّ الخناق على النظام، خطر لي زيارة سليمان، وجدته أمامَ بيتِه، يُدخِّن سيجارةً، ابتسمتُ له قائلًا:

- ما أجمل الحُريَّة.

- هل تنوي السُّلطة تجريم التدخين؟ أم قرَّرتم بيع الهواء؟

ضحكتُ، قائلًا:

- يسقُط يسقُط حُكم العَسكر.

انتابته الحيْرة، قال بخوف:

- لا أثق كثيرًا في العساكر.

- نحن بشر يا سليمان.

- طغاة.

- بل شرفاء.

- كيف علمت يومها بقائمةِ المُعتقلين، لو لم تكن ضابط أمن.

- لو كنت كما تقول، لماذا أساعد خصمي بدلا من مُهاجمتِه؟!

- لعلَّها صحوة ضمير.

- سمِّها ما شئت، وتأكَّد أنَّني أكره هذا النظام أضعاف كراهيتك له، وأتمنى زواله الآن.

- أين نادية؟

- لا أعرف عنها شيئًا، اختفت منذ فترة.

- لأيِّ حدٍّ يُمكنني أن أثق بك؟

- ما شكوكك نحوي؟!

- عملك مع جهازِ الأمن، وعلاقتك بخالِك، وفي الوقت نفسه تساعد الثوَّار مساعدةً حقيقية، ما حقيقتك يا أشرف؟!

- أتراني عميلًا مزدوجًا؟

- ربَّما، ما يهمني هو كيف ترى نفسك؟

- نفسٌ مليئةٌ بالشروخِ، تُحاول التوبة.

- ما حقيقة مقتل المقدِّم حسن، والرائد يوسف؟ كيف، ولماذا تبادلا إطلاق النار؟ مَنْ قتلهما يا أشرف؟

- أنا، قتلتهما انتقامًا للثوار.

- حقًّا؟

- هذا سِرٌّ يا سليمان، أتمنَّى أن يَظلَّ بيننا.

بدأت تظهر عليه علاماتُ الارتياحِ، قال بفرحٍ:

- سيظل السِّرُّ بيننا، هذا وعدٌ مِنِّي، حين سمعت بقصةِ موتِهما، لم أُصدِّق، شعرت أنَّها عملية انتقامية، ما حدث بينكما لا يخضع لقوانين ثورتِنا السِّلمية، نحن لا ندعو للقتلِ ولا الانتقامِ، وبالمقابل نُطالب النظامَ بالرحيلِ، ونَسعى لمحاكمةِ كُلِّ مُجرم.

- أكره إراقة الدماء.

- القصاص العادل هو المطلوب.

- تأخَّرت كثيرًا عن اللحاق بالثورة.

- كان أبوك ثوريًّا مِن طرازٍ فريد.

- مات رافضًا الركوع.

- مات واقفًا كما الأبطال.

- تعذِّبني ذكراه، ليته عاش؛ ليشهد سقوط النظام.

- كلّ مناضل يمضي، يضع نطفة في رحم الثورة.

- كنت صادقًا معك، لماذا لا تُبادلني الصدق؟

- بماذا؟!

- أين نادية؟!

ضحك، قائلًا:

- أهو الحُب؟

- نعم.

- أتظن أنَّ الوقتَ مناسب لتبادل الحُب؟!

- الحبُّ كما الثورة، حين يندلع، لا يعرف قوانين الزَّمنِ.

- تبهرني كلماتك يا أشرف!

- فتنتني نادية؛ بصمودِها، وعِزَّةِ نفسِها، وصلابةِ مواقفِها.

- حكت لي موقفك معها يوم المزرعة، وكيف هربت.

- أين ذهب الحارس؟

- لا أدري.

- حين سألتني أين نادية، انتابني خوفٌ هائل.

- حاولت اختبارك، وتأكَّدت أنَّك صادق.

ثُمّ أردف:

- هناك عملٌ ثوريٌّ ضَخمٌ نرتِّب له مع لجان المقاومة في كلِّ أنحاء السُّودان، ومع كلِّ الثوَّار في الخارج، عملٌ سيُعلن نهاية النِّظام، وتأسيس دولةِ العَدلِ.

- لي عظيم الشرف بالانضمام لصفوف الثوَّار.

- الأمر في غايةِ الخطورة، هيَّا نُكمل الحديثَ في الدَّاخلِ.

دخلتُ دارَه لأوَّلِ مرَّة، الفناء يبدو كغابةٍ من وفرةِ الأشجار، سيَّارته قابعة تحت عريشة تكدَّست حولها أشياءٌ فادحة الإهمال، دلفنا لصالةٍ مُهيَّأةٍ لاستقبالِ الضُّيوفِ، على الحائطِ صورتُه في زيِّ التَّخرُّج الجامعي، هي الصورة التي حدَّثني عنها من قبل، تحتها مكتبةٌ ضَخمة، يقبع تحتها كلبٌ يلهث من فرط الحَر.

بعكس فوضى الفناءِ، كانت الصَّالةُ في أبهَى آياتِ الجِمالِ والنِّظامِ، تناقضُ جمالِ بيتِه يَعكس تناقض شخصيته المُحيِّرة، قال بهدوء:

- اجلس يا أشرف.

جلس في مواجهتي، ظلَّ صامتًا، لم يقمْ بواجبِ الضيافةِ، قال باستياءٍ:

- أُمِّي وأخواتي خارج الخرطوم، انقطع التيار الكهربائي منذ الصباح، هل ترغب في شاي؟ أم قهوة؟ أم ستكتفي بلعن النظام؟

- لا أرغب في شيء، رغبتي الوحيدة هي الاستماع إليك.

- ما أودُّ قوله يتطلَّب مشورة لجان المقاومة.

- متى؟

- لدينا اجتماع بعد قليلٍ، ويمكنك حضوره.

نظرت لساعةِ الحائطِ، كانت تُشير للثانية إلا سبع دقائق، توقعَّت أن يكون الاجتماع في تمام السَّاعةِ الثانية، قلت له:

- تجتمعون في الثانية ظهرًا.

قال بحماس:

- كلُّ يوم.

رنَّ هاتفه، قال لمحدِّثه، تركت لكم الباب مواربًا، ادخلوا فرادى بعد تأمين الشارعِ، ولا تلفتوا الانتباه.

دلفَ الحضور، وكم كانت دهشتي حين رأيت نادية، ووالدها، تحدَّث سليمان، قائلًا:

- بُشرى للجانِ مقاومةِ الكلاكلات، انضمَّ إلينا أشرف، وانحاز للثوَّار.

هتفت نادية بحماس:

- ثقتي بأشرف لا حدود لها.

قالت إحدى النساء:

- معلوماتنا تؤكِّد معدن أشرف، يكفي معاملته الرائعة للمُعتقلين.

قال سليمان بثقة:

- اكتملت أركان الثورة، تصدَّع النظام، ولم يتبقَّ له إلا مراسم التشييع.

قلت لهم:

- لأول مرَّةٍ في حياتي أشعر بقيمةِ نفسي، أنا رهن الإشارة.

أردف سليمان:

- ونحن سعداء بانضمامك للشرفاء، هل هناك اعتراض من الحضور لانضمام أشرف.

أجمعوا على قبولي بينهم، ماعدا ثلاثة من أصل عشرة.

قلت للجميع:

- اطمئنوا، لو كنت أنوي الغدر بكم، لما سرَّبت أسماءَكم لسليمان، ومنعت عنكم الاعتقال.

قال أحد الثوَّار:

- ليتَّكم اعتقلتونا، يومها قتلتم شُرفاء (بُرّي)، لن ننسى شهداءنا، ولن نغفر.

قال والد نادية:

- ليس هذا وقت جرد حساب، مساهمة أشرف في نجاح الثورة، أكثر أهميَّةٍ من كلِّ نقاشٍ، دعونا نستعرض تفاصيل الاجتماع.

- بل هو وقت الحساب، هذا الاجتماع ملغوم، أنتم تهدِّدون حياتنا، تجتمعون برجلِ أمنٍ قاتل، مِن أين لكم بهذه الثقة؟!

قالت نادية بفزع:

- هل أشرف رجل أمن؟

- ومسئول الأمن بالكلاكلات.

قالت نادية بحزن:

- ما رأيك يا أشرف؟

كلُّ الوجوه تفترسني، وجدتني في مواجهة شرسة، قلت لهم:

- أُجبرت على دخولِ الكُليَّة الحربية، وجهاز الأمن، هذا الجهاز اللعين يمارس ابتزازه على أعدائه وعلى منتسبيه، تصالحت مع نفسي، واخترت طريق الثورة، سليمان يعرف كلَّ شيءٍ، ولكم الخيار.

قال والد نادية:

- أمرك حُسم بالتصويت، من له اعتراض فليغادر الاجتماع.

غادر الشاب، وخلفه نادية، لحقت بها في الفناء، قلت لها:

- أرجوك.

نظراتها تحتقرني، قالت بصوتٍ حزين:

- لم أكن أتوقَّع.

- سنتحدَّث بعد الاجتماع، لا تفسدي عليَّ أوَّل وأجمل لحظةٍ ثوريةٍ أعيشها.

رضخت، استسلمت لرجائي، كانت حزينة، ضعيفة، حائرة، رجعنا للاجتماع، نفوسنا مشروخة، مُمعنة في الانكسار.

★★★



١٠

انتهى الاجتماع، خرجوا جميعًا، استأذنتُ من والدِ نادية بالحديث إليها، تركنا ومَضَى، جلسنا لوحدنا في الفناءِ، مَرَّت لحظاتُ الصَّمتِ بيننا عصيَّة، قُلت لها:

- أعلم ما تعانيه.

قالتْ بحزنٍ هائل:

- كأنَّني في كوكبٍ آخر، مع كائنٍ مُختلف!

- مات أبي وهو يَتضوَّر جوعًا، جوَّعه خالي اللعين بسبب خلافٍ سياسي، أجبرني خالي على الدخولِ للمؤسسةِ العسكريةِ، وجهازِ الأمنِ، طوَّقنا بجبروتِه، حرمنا لذَّةَ الحَياةِ، وسَقانا المُرَّ.

- خالك عديم النخوة والأخلاق.

- مُجرَّد كائن مشوَّه، لا ينتمي لفصيلةِ البَشرِ.

- ما يهمني هو أنت.

- هل تصدقي أنَّه منحَني رتبةَ رائد، فقط لمتابعتك.

ضَحكتْ بسخريةٍ، رغم سحاباتِ الأسى التي تُمطر حولنا، قالت ويدها مفتوحة:

- هذه الترقية تخصّني، أين مُخصَّصاتها؟

ضحكتُ، أخرجتُ الخاتمَ الذهبي من إصبعي، ووضعته على يدها، قائلًا:

- حياتي كلُّها رهنَ ابتسامتك.

ردَّته بهدوءٍ، قائلة:

- كنت أمزح، أرجوك لا تحرجني.

- لا يأسَ مع الحُبِّ.

- أكره الوعود التي يصعب الوفاء بها.

- سوف أقدِّم استقالتي من الجيشِ والأمنِ، ونبدأ من الصفر.

- قضيت عمري كلَّه وأنا أحاول الوصول لنقطةِ الصفر.

- سنبدأ معًا، و...

قاطعتني، قائلة:

- قبل معرفتي بماضيك في جهازِ الأمن، كان الوضع معقَّدًا، صار الآنَ أكثر تعقيدًا.

- لو كان اللهُ يغفر، فما بال البشر؟

- لست إلهًا، ولست ضدَّ الغفران.

- ما الأمر إذن؟!

- مشكلتي أنَّني لن أستطيع نسيان ما حدث.

- النسيان يتطلَّب وقتًا.

- والوقتُ رهانٌ.

- سَنُراهن على خيلِ الزَّمنِ.

- طوال فترة الاجتماع، كنت أنظر إليك خلسةً، وأتذكَّر كُلَّ كلمةٍ هَمَسْتَ بها في أُذني، كل لقاءٍ تمَّ بيننا، كل لحظةٍ ارتشفنا فيها طعم قهوتِنا المسائية، كل قطرةِ أملٍ تجمَّعت في سَماءِ وعدِنا في انتظار لحظةِ هطول، الآن أراك بنصفِ عين، بحدقة ذابلة، بقزحية تلوَّن بؤبؤها بلونِ الأسَى، كلَّما تذكَّرت شهيدًا من المناضلين، يُخيَّل إليَّ أنَّه استُشهد على يديك.

دمعت عينايَ، ارتعشت مسامات جلدي، قُلت بألم:

- دعيني أغتسل على يديك.

- أرجوك، دعني أتكلَّم، أتذكر يومَ قلتُ لك أنَّ الحديثَ رغبة المأزوم؟ كنت دومًا أُجيد الإصغاء حين يتحدَّث زبائني عن همومِهم، أنا الآن زبونتك، وأنت بائع الوهم، بيع الشاي مهنةٌ تُثقل كاهلِ المرأةِ، وبيع الوهم يجعل الرجال أكثر فحولة، وأكثر قدرة على إنجاب الكذب، لا أدري كيف نجحت في خداعي؟! هل هو ذكاؤك، أم غبائي؟!

تحدَّثت عن آلامك، قلت إنَّ أباكَ ماتَ بيدِ خالِك، سمعت عن قصَّته، مَنْ مِنَّا لم يتعذَّبْ بفقدِ عزيزٍ؟ لو ماتَ أبوك في بيته بتعذيب جهاز الأمن، فزوجي مات في المعتقلِ تحت التعذيب، ولو عانتْ أُمُّك بتربيةِ أولادها، فأنا أُمٌّ، لا تعرف أجفانها شهوة نوم أو إغفاءة، قضيت أمومتي في البحث لأطفالي عن غذاءٍ ودواء، أستعين على غيابك بحلمٍ ينمو في وطنٍ بلا أشرار، لأجدك تتربَّص بأحلامي مُدجَّجًا بفوهةِ الشَّرِّ.

- أرجوكِ!

- كنتُ أنظر إليك في كلِّ لقاءٍ، وأبحثُ بين عينيك عن مواساةٍ تليق بعذابي، عن دواءٍ ناجع لمرارةِ فقدي، عن تعويضٍ يُعادل خَسَاراتي.

كيف استوليت على قلبي، واقتحمتَه عنوةً؟! كيف خدعتني بتقديم الحُبِّ على طبقِ الوعدِ، ثم أكلتَه وحدك، وتجشأت في وجهي؟ زوجي اغتيل في زنازينكم، وترك لي طفلين، وأنت الآن تغتالني، وتتركني في العراء.

- أرجوكِ!

- ترى حين سألتك عن هشام، هل كنت تعلم مصيرَه؟ هل علمت أو ساهمت في مصير غسَّان؟ هل تذكر أوَّل مرَّة رأيتك فيها؟ بوجود غسَّان؟ كان قلقًا، طمأنته وقدَّمته إليك في أوَّل لقاء، هل تدري كيف وثقت بك لحظتها؟ نظرت لعينيك، وجدت فيهما حلمي، حلم راودني لسنوات، لم أكن أدري وقتها أي أنواع البشر أنت، ماذا لو ظنَّ غسَّان أنَّني تواطأتُ معك ضدَّه؟ مات هشام بالتعذيب، مات تحت أيديكم، مات وانتهى أمره، ولا يزال غسَّان على قيدِ العذاب، هل سألت نفسك، ماذا أقسى من الموت؟!

- ما هو؟

- اغتصاب الرجل للمرأة، وهل تدري ما هو أشد؟

قلت بقلب موجوع:

- لا.

- اغتصاب الرجل للرجل، حاولت مقابلة غسَّان، رفض، حاولت التحدُّث إليه بالهاتف، قالت لي أمُّه أنَّه رمى هاتفه في سلَّة النسيان، صار دائم الشرود، لا يُكلِّم أحدًا.

- يا إلهي.

- هل سألت نفسك، ما مصير ضحاياكم بعد خروجهم من المعتقل؟

- أعلم حجم المآسي التي يعيشونها.

- مأساتي الآن مضاعفة يا أشرف، ليتك تركتهم يعتقلوني يومها ويقتلوني قبل أن أرى هذا اليوم.

- خدعتهم لحمايتك من الاعتقال.

- شعرتُ يومها بإحساسٍ غريب، ومُتناقض، بالخوفِ والأمان، بالسَّعادةِ والشَّقاءِ، سألتُ نفسيَ، كيف لضابطِ جيشٍ مَعرفة أسرار جهازِ الأمنِ؟! قال لي أبي، يبدو أنَّه فخ، هربنا بعد خروجك.

- والحارس؟!

- لا أعلم عنه شيئًا، ماذا حدث له؟!

- ذهبت للمزرعةِ؛ لاتفقَّدكم، لم أجد أحدًا.

- المال الَّذي تركته لنا لا يزال بحوذتي، لم أنفقْ منه شيئًا، سأردّه إليك مساء اليوم.

- لا، هو لكِ.

- حين قبلته منك على مضض، اعتقدت أنَّه مال الجيش، لا يا أشرف، اعذرني، لا أقبل أن يأكل أولادي مالَ جهازِ الأمن.

خرجَت عنِّي شهقةُ العذابِ، كيف أستردّ منها مالًا أعلم مدَى حاجتها إليه، بل كيف أسترد ثقتها وحبّها؟ حاولت مراوغتها، قائلًا:

- الأشياء المُستردة تحفر في مكانها فجوة لا تنطمر.

- أحتاج هواء النسيان، نفَد مخزونُ الصَّبرِ عندي.

- تبتعدين عنِّي في أشد أوقات حاجتي إليك؟

- الوطن بحاجةٍ أكثر لطاقتي ومشاعري.

قلت لها بيت شعر لا يفارق ذاكرتي:

- " لا بي إيدك تمنع قلبي.

ولا قلبي كمان بي إيديا".

ابتسمت لي، وقالت وهي تفتح بابَ السَّعادة، وتتركه مواربًا:

- كيف نلتقي؛ لتستردَّ نقودك؟

- لماذا أستردها وهي أموال الشعبِ، تبرَّعي بها؛ لتغطية نفقات لجانِ المقاومة.

- لا بأس.

- سأزورك مساءً.

- لماذا؟!

- لسببين.

- ما هما؟

- اشتقت لقهوةٍ من يديك.

ابتسمت قائلة:

- والسبب الثاني؟

- كتابة تقريرٍ أمنيٍّ خادعٍ أقدِّمه لخالي؛ حتى لا ينكشف أمرنا، وفي الوقت نفسه، نجعله يتشتَّت، ويناطح الفراغ بمعلومات مغلوطة.

- هل أكتبه بخط يدي؟

- نعم، وسوف أعيد كتابته عندك بخط يدي، ونمزِّق نسختك.

في المساءِ، ذهبت لنادية، قال لي والدُها وهو يسلِّمني التقرير، أنَّها خرجت لأمرٍ مُهم يتعلَّق بالثورة، أخذت التقريرَ، ورجعت للبيت، أعدت صياغته بيدي، ومزَّقت نسخةَ نادية، تجوَّلت في البيتِ، لا أحد يهتم لوجودي، تكشَّفَت لي حقيقة نفسي، نظرتُ لمرآةِ ذاتي المشروخة، لا أصدقاء، ولا حتى علاقات زمالة، علاقتي بأُمِّي سيِّئة، قالتها لي، ليتني مثل أبي، هل كانت حقًّا تعني ما تقول؟! أم سوء حالي جعلها تتمَّنى ذلك؟ هل كانت سعيدة بأبي، وبروحِه الثورية؟! وما جدوى مدحه بعد الموتِ، وهي لم تمدحه في حياته؟! هل الموت محفِّز للثناء؟ أم هو طعم الفقد الذي جعل أيام بؤسِها تتشابه عليها كبقر النَّحسِ؟!

يبدو أنَّني أُشبه أُمِّي كثيرًا، نأكل من نفسِ موائدِ الطاغية، ونَسُبُّ طعامَه، ونبصق ذاتنا حين نغسل أيدينا أوان الشبع، اختلافنا الوحيد أنَّها اختارت الحياد بين أبي وخالي، وتمنَّيتُ أن أكون مثل أبي وليس خالي، يظل أبي رمز الوفاء، وخالي لعنة تطاردنا مدى العمر، تمضي حياتنا بلا دليل، يموت الوفاء، وتبقى اللعنة!

علاقتي بأخواتي مُمعنة في البرود، لا أعلم عنهنَّ شيئًا، لا نتحدَّث، ولا نتنزَّه معًا، تذكَّرتُ طفولتي وتوأمي نجوى، أين ضحكات الطفولةِ؟! أين صفاء النَّفسِ؟! وعذوبة المعاني؟! أين ندى؟! كيف صارت غريبة عنِّي؟! تعيش عالم سخريتها الخاص، وتحاول النجاة من لعنات خالي وسطوتي.

في الصباح، ذهبت للمكتب، تضاعفت مهامي بعد الترقية، صرت مسؤولًا عن مناطق عديدة في العاصمة، وبينما كنت أراجع تقريريَ الأمني الكاذب عن نادية، ظهر خالي، طلب لقائي على وجه السرعة، وجهه يدل على نشوب كارثة، جلوسًا على مكتبه، قال لي بتوتُّر بالغ:

- كارثة يا أشرف، كارثة.

صُعقت، قلت له وقلبي ينتفض:

- ماذا تقول؟! كارثة؟! ماذا حدث؟!

- اتصل بي النائب العام، ووزير الداخلية، طلب النائب العام حضوري لمكتبه نهار اليوم، وعلمت من مصادري أنَّهما قرَّرا فتح تحقيقٍ رسميٍّ في مقتل حسن ويوسف.

- يا إلهي!

- نحن قاب قوسين أو أدنى من الهلاك.

فقدت قدرتي على التوازن، سمعت صراخ الموتِ يصدر مِن أعماقِ قلبي، قلت له:

- متى ستذهب لمقابلته؟

- بل سنذهب معًا.

حدَّقت في وجهه وعينيه، لا أثر فيهما للحياة، كأنَّه جثة توعَّكت قبل الموتِ، قلت له:

- ولماذا أذهب معك؟!

صاح بغضبٍ عارم:

- لأنَّك المسؤول عن هذه المصيبة.

- أتنوي التخلِّي عنّي؟

قال بأسى:

- لا يا أشرف، ما بيننا ليس فقط صلة دم، ما بيننا أكبر بكثير.

- ماذا تعني؟!

- مقتل حسن ويوسف حدث في مكتبي، لذلك أنت شاهد، وجودك معي سيسندنا معًا.

- لماذا قرَّر النائب العام فتحَ التحقيق؟!

- هناك احتمال واحد لا غير.

- ما هو؟

- التشكيك في تقريرِ الطبيبِ الشرعي.

- لا أظن، تأكَّدتُ أنَّ أسرتيّ حسن ويوسف، استلمتا شهادتي وفاة مطابقة لنسختنا.

- هل تابعت نبيل؟ أم رفعت مراقبتك عنه؟

بدأت شرارةُ الشَّكِّ تتسرَّب إلى نفسي، اندلع حريقُ الظنون، وفاحت رائحةُ الكارثةِ، قلت له:

- رفعتها، بعد.....

قاطعني، قائلًا:

- غبي.

لم أتحمَّل إهانته، بلعتها على مضض، قائلًا:

- أتعني أنَّه تلاعب بي؟!

- أخشى ذلك، حدسي يقول إنَّه قدَّم تقريرًا آخرَ للنائب العام.

- الويل له، سأقتله بيدي.

- هذا لو تمكَّنت من الوصول إليه.

- ماذا تعني؟!

- لو فعلها، فمن المؤكَّد أنّه الآن خارج البلاد.

- يا للهول!

- أكبر خطأ وقعنا فيه، أنَّنا دفعنا له أموالًا نقديَّة.

- ونكون بذلك سهَّلنا له سرعةَ السَّفر.

قال بألم:

- سوف أتأكَّد الآن.

أجرى اتصالًا، تحدَّث قليلًا، وانتظر مسافة طويلة على الهاتف، ثُمَّ أغلقه وهو يضع رأسه على حافة عذاباته، ويجهش بالبكاء.

بكى خالي، بكى بحُرقة، بكى كما الأطفال، تهاوت عروش سطوته، وصارت رمادًا.

تحنَّطت مشاعري، حاولت البكاء مثله، وفشلت، حاولت مواساته وعجزت، حاولت النهوض، تعثَّرَت أطرافي، وفقدت القدرة على النطق.

مسَحَ آثارَ الدُّموعِ، استعاد اتزانَه بسرعةٍ فائقة، قائلًا.

- سافر نبيل مع أسرته للقاهرة.

- خائن، قذر.

- من المؤكَّد أنّه قدَّم للنائب العام تقريرًا آخرَ، ثُمّ غافلنا وهرب.

- ستطاله يدي، حتى لو اختفى في قاع المحيط الهادئ.

- دعنا من هذه الهتافات، كان تحت يدك، لماذا تركته يهرب؟!

- ماذا تقصد؟!

- من الغباء تركه على قيد الحياة بعد أن عرف أنَّك القاتل.

- تصفيته أيضًا ستثير الشكوك.

- أفضل أن تثير الشكوك بدل تأكيدها.

- لم تطلب مِنّي قتله.

قذفني بكوم من الأوراق على وجهي، صائحًا:

- وهل طلبت منك قتل حسن ويوسف؟ قتلتهما بمعرفتك، وبقرارك وحدك، وفي مكتبي، وتحت سمعي وبصري، ليس هذا فحسب، طلبت منك عدم قتلهما، وخفض سلاحك، لكنَّك رفضت، ضربت بحديثي عرضَ حائط غبائك، وها نحن الآن في طريقنا لحبل المشنقة.

تجاوزت الإهانة، قائلًا:

- سنجد لها حلًّا، أرجو أن تهدأ قليلًا؛ حتى نستطيع التفكير.

نهض من مكتبِه، مسكني بقوَّةٍ، قال لي بصوتٍ يحمل نبرة الموت:

- لماذا قتلتهما؟

حاولت التخلُّص من قبضتِه، نجحت بصعوبةٍ، قائلًا:

- أخبرتك بالأسباب.

قال وعيناه ترفض التصديق:

- لو كانت أسبابك مقنعة، لما أعدت عليك السؤال مرَّة أخرى.

- ماذا تعني؟!

- أنا رجلُ أمنٍ، وفي قيادة أجهزتها قبل أن تُولد، سأعيد عليك السؤال لآخر مرَّة، لماذا قتلتهما يا أشرف؟

- لا أدري بمَ تُفكِّر؟

- هناك دافع خفي أجبرك على قتلهما معًا، دافع رغم غموضه، إلا أنَّني أشتمُّ رائحتَه.

عيناه تشع بذكاءٍ مُتَّقد، ورغبته في معرفةِ الحقيقةِ تزداد، قلت له بثقة:

- لماذا تضيّع وقتنا في قصَّةٍ لا جدوى من معرفة تفاصيلها، نحن الأحياء أولى بمعرفة مصيرنا.

- لا تتذاكى يا أشرف، قتلك لهما معًا، يعني أنَّك منعت سرًّا اكتشفاه ضدَّك، ما هذا السر؟!

- صدِّقني يا خال، ليس هنالك س..

صفعني بقوَّة، وانهالت صفعاته على وجهي، قال بحُرقة:

- حسنًا، سوف أروي لك ما أتذكَّره، وسوف أساعدك على ربط الأحداث ربطًا منطقيًّا.

قلت له:

- قل ما عندك، فقط أرجوك، لا تضربني.

- حسنًا، لن أضربك، فأنا أيضًا أحتاج لتركيزك، حسب ذاكرتي القويَّة، تسرَّبت قائمة المطلوبين للاعتقال، وهذه القائمة نعرفها أنا وأنت، وحسن ويوسف، رفضت أنت قرار يوسف باعتقالِ أسرِ المطلوبين للاعتقال كرهائن، وأنا دعمتك وقتها؛ للتحقيق في أمر هذا التسريب الغريب، يوسف شعر أنَّ هناك وشاية، وحسن دعم رأي يوسف، ويوسف اتهمك بالوشاية،

حاولت صفعه من أجلك، بعدها قام حسن بتأكيد مبدأ الوشاية، دون تحديد اسمك، ربَّما خاف من ردَّةِ فعلي تجاهه، كما فعلت مع يوسف.

ابتلعت ريقي، وحبست أنفاسي، ثُمَّ أردف:

- شيءٌ مَّا حدث في الطريق بينكم، جعل شكَّهما نحوك يزداد، ما هذا الشيء؟

- لا شيء.

- حسن ويوسف قاما بقتل متظاهري (بُرّي)، أليس كذلك؟

- نعم.

- وأنت، كم قتلت؟

فكرت أن أكذب عليه، وجدت فرصة اكتشافه للكذبة ربَّما تكون أسرع مما أتوقَّع، قلت له:

- لم أقتل أحدًا.

- لماذا؟ أتظن أنَّك تعمل مدقِّق لغوي في مجلة ثقافية؟ أنت رجل أمن، وظيفتك هي قتل المتظاهرين، وسحلهم.

- لا أحب القتل.

- يا للغرابة، تقتل ضابطين في جهازِ الأمنِ تربطك بهما صلة زمالة، وترفض قتل متظاهرين لا تعرفهم! وأسباب رفضك أنَّك لا تحب القتل! لماذا قتلت حسن ويوسف لو كنت فعلًا لا تحب القتل؟!

هذا السؤال هو أصعب سؤال سألته لنفسي، لماذا نجد مبرِّرات لأفعال في غاية السوء، وفي الوقتِ نفسه نرفض مبدأ حدوثها؟ هو نفس السؤال الذي قصم ظهر نفسي حين عذَّبت معلِّمي هشام، وساهمت في قتلِه، وهو

السؤال نفسه الذي يجعلني الآن نادمًا أشدَّ الندم على عدم قتلي لدكتور نبيل، قلت له بصعوبة:

- أجدني عاجزًا عن إجابة هذا السؤال.

- أنا لست عاجزًا، وأعرف الإجابة، لم تتجرأ على قتل المتظاهرين؛ لأنَّك لا تراهم أعداءك، ولا أعداءً للوطن، وسمحت نفسك بقتل زميليك؛ لأنَّك بينك وبين نفسك، تعتقد أنَّهما عدوَّين لك.

قلت مُمتعضًا:

- لا يا خال، القتل هو القتل، بنفس مبرراته السخيفة في كلِّ الحالات.

- حتى حالات الدفاع عن النفس، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- لذلك قتلتهما، دفاعًا عن نفسك، لأنَّهما كشفا حقيقتك.

- أيَّة حقيقة؟!

- حقيقة خيانتك يا أشرف، خيانتك لي ولوظيفتك، وكلّ هذا من أجل بائعة شاي عاهرة، لا تسوى ثمن كوب قهوة، ثُمَّ حاولت إيهامي بأنَّ حسن ويوسف يدبرا مكيدة لي، وأنَّك قتلتهما دفاعًا عنِّي.

كان لابدَّ من المواجهة، انكشفت حقيقتي أمامه، سَقطَت آخرُ أوراق توتي، وبانت سَوءَتي، قلت له بتحدٍّ سافرٍ:

- كلُّ هذا التحليل لا يعنيني الآن، ولا أظنّه يفيد موقفنا أمام النائب العام.

- لأنَّك غبي، لا تفهم خطورة أفعالك، تجاوزت عن أخطائك، قلت لنفسي لعلَّك تتعلَّم، وها هو حبلُ المشنقةِ يقترب من رقابِنا.

- سننجو، كما نجونا من قبل.

- مركبُ النجاةِ لا يسَع كلانا، وأحيانًا نُغرق أحد الركَّاب لينجو الآخرين.

قلت بعناد:

- لن أسمح لك بإغراقي لتنجو أنت، دعنا نفكر في نجاتنا معًا.

- لو كنت صريحًا معي منذ البداية، لكنت الآن في وضعٍ أفضل، ولو كنت قتلتهما بعيدًا عن مكتبي، لساعدتك، أمَّا الآن، فلا أستطيع.

- خروجك للجنود يومها، وتصريحك أنَّهما قتلا بعضهما، يضعك في خانةِ الشَّك.

- لا تحاول زجِّي خلفَ بابٍ أنا أملك مفاتيحه.

- دعنا نتفق على حَلٍّ يُخرجنا معًا من هذه الورطة.

- انتظرني بمكتبك، سأغيب قليلًا، وأعود إليك، وسنذهب معًا للنائب العام.

★★★


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

١١

ذهبتُ لمكتبي، قلبي يَرتعش، ويضخ دماءَ الخوفِ بغزارة، أمسكتُ تقريرَ نادية، مزَّقته ورميته في سلَّة المُهملات، لا معنى لهذا التقرير، ربَّما يورِّطني أكثر، كلُّ شيءٍ انكشف لخالي، وفقد ثقتَه بي. بعد قليلٍ خرج خالي وهو يحمل حقيبتين، قال لي: سأعود بعد قليل، ومضى بوجهٍ تفرمه الآلام.

هل قرَّر خالي الهربَ خارج البلاد؟! لا أدري، ربَّما شعر بالخوفِ والخطر، لذا حمل حقائبَه ولاذَ بالفرار، لو حدث هذا ستكون كارثة، ماذا أنتظر؟ لمَ لا أهرب أنا أيضًا إلى القاهرة، وأضرب عصفورين من المنفعة بحجرِ الثأر، أثأر من خالي ونظامه؛ بهروبي من الخدمة والانضمام لثوَّار الخارج، وأثأر من نبيل لخداعه لي.

تريَّثتُ قليلًا، لو هرب خالي، كيف أهرب أنا؟ كيف أترك أُمِّي وأخواتي مكشوفي الظهر؟ مَن يحميهم من بعدي؟ لمن أترك حبيبتي نادية؟ هل أتركها لوحوش جهاز الأمن ليغتصبوها؟ أم أقف بجانبها لحمايتها وحماية أسرتي؟ لا لن أهرب، أفضِّل أن أموت هنا واقفًا، على أن أعيش في الخارج مكسور الأمان، عشتُ حياةً كلّها أخطاء، قَتَلت، وعذَّبت، ومارَست الابتزاز والتضليل، انتميت لجهازِ أمنٍ قاتل، صفَّقت للباطلِ ونصرته، وفقأت عينَ الحَقِّ بيدي وخذلته، آن أوان الرجوعِ للحق، والتمرُّد على النظام.

قرَّرت الاختباءَ والتخفِّي داخل السُّودان، سأكون قريبًا من أهل بيتي ومن حبيبتي، لن أنتظر النائب العام؛ حتى ينال مِنِّي ويقتص، من مخبئي سأدعم الثورة بمختلف الطُّرق، جمعت أغراضيَ المُهِمَّة من مكتبي، وضعتها داخل كيس كبير، دلفت لمكتب خالي، سرقتُ كُلَّ المستنداتِ والأختام، وكُلَّ الأموالِ، وخرجت بهدوء، وضعت الكيس بعربتي، ورجعت للمكتب.

لخالي نسخًا من كُلِّ مفاتيح الأبواب الداخلية والخارجية لمبنى الجهاز، بحثت عنها في مكتبه، وجدتها بسهولة، طلبت من أحد الجنود إحضار أكثر المعتقلين شغبًا لمكتبي لتأديبه بنفسي، بعد دقائق وقف أمامي شابٌّ في ريعان العُمر، تأمَّلته، حفظت ملامحه، وسمحت له بحفظ ملامحي، طلبت منه الجلوس، فجلس مُندهشًا، قلت له بحزم:

- انظر إليَّ جيِّدًا، واحفظ ملامحي، كما حفظت ملامحك، ما اسمك الكامل؟

قال لي بخبث:

- أهو تحقيق جديد.

شعرت أنَّه سيهدر زمني، وكنت أصارع الوقتَ قبل رجوع خالي، فتحت مِلفَّات المعتقلين، راجعتها بسرعة حتى وجدت مِلفَّه، قُمت بتصوير المِلف بسرعة، واحتفظت بنسختِه في جيبي، وأعدته لمكانه، قلت له بلهفة:

- لن أسألك، لا وقت لديَّ للأسئلة، كُلُّ معلوماتك صارت معي، اسمك وعنوانك، وكُل تفاصيل حياتِك، قد أحتاجك حين خروجكم من المعتقل اليوم.

قال بدهشة: هل قرَّرتم الإفراج عن المعتقلين؟!

- هو قراري وحدي، تمرَّدت وصرت عضوًا في لجان مقاومة الكلاكلات.

لمعت عيناه ببريقِ الجَذَل، هتف قائلًا:

- ما المطلوب مِنّي تحديدًا؟

- أن تصرخ الآن بأعلى صوت.

- ماذا؟

- كما طلبت منك.

صارَ يَصرُخ كالمجنون، بانت شقاوته وحُسن اختيار الجندي له، مع نسخة مفاتيح الأبواب، تركت له جَمَلَ أسرارِ المكانِ بِما حَمَل، استعرضت معه خطَّة هروبِ المُعتقلين، طلبت مِنه الحرص والحذر، واختيار لحظة مناسبة للهروب، احتضنته، وطلبت منه ومن المعتقلين العفو والسَّماح، أخذته بيده لزنزانة المعتقلين، على انفراد عند باب الزنزانة، منحته مبلغًا من المال، مع نسخة مفاتيح الأبواب، فتحتُ الزنزانةَ، دفعتُ به إليهم بحنان، تأمَّلتهم، رأيت أشرف خلق اللّه، وجوههم تأذن بميلادِ فجرٍ جديد، هتفت لهم:

"من حقّي أغني لشعبي.

من حق الشعب.... عليّا.

لا بي إيدك تمنع... قلبي.

ولا قلبي كمان.. بي إيديا."

التفُّوا حولي كجياعٍ حول وليمةِ غناء، مدُّوا حناجرَهم، وصاروا يغرفون من أنشودة الخلاص:

"علّمني أغني الطين
المخرطة .. والطورية
الناس الصابرة سنين
بالحالة.. الما دغرية
القابضة الجمرة في إيدا
والجمرة تلهّب حيّة
لا قادرة الجمرة تقيدا
لا قادرة تولّع..... هيّ
يا قلبي بلاش تستعّجل
في الدرب شوية شوية
واصلين... الما بتأجل
لليوم الشمشو قويّة."

بكيت بينهم، احتضنتهم فُرادى وجماعات، ليت حضني يسعهم جميعًا في لحظةِ وداع، خرجت منهم برئةٍ مملوءةٍ بهواءِ الأملِ، قابلتُ أحدَ الجنود، قلت له إنَّني سأعود بعد دقائق، نظرت للمكان لحظة خروجي، هنا قُتل معلِّمي هشام، هنا قتلتُ حسن ويوسف، هنا أُغتُصِب غسَّان، ومن هنا سيخرج المعتقلون للشوارع، ويستعيدون الوطن.

استخرجت رقمَ هاتفٍ جديدٍ، وذهبتُ لبيتِ سُليمان، وجدته يتهيَّأ للخروج، كانت السَّاعةُ تجاوزت الواحدة ظهرًا، قلت له:

- ما أسعدني بالرفاق.

- مرحبًا صديقي أشرف، أين أنت؟

- جئتك من سبأ النضال بأحلى نبأ.

قال بفرح:

- هات ما عندك.

حملت الكيسَ، ودلفنا لداخل بيته، قلت له:

- معي وثائق، وأختام، وأموال جهاز الأمن، هي لك وللوطن.

لم يُصدِّقني، لمس بيدِه محتويات الكيس، تهلَّلت أساريره بفرح، ضمَّني إليه، قائلًا:

- هذه أشرفُ سرقةٍ في التاريخ البشري.

ضحكتُ، قلت له:

- هذه ليست سرقة، هذه حقوق تخص الوطن، كانت مسروقة، وعادت إليه.

- أعلم ذلك، كنت أمزح معك، احتفظ بالأموالِ معك، لا تنفق منها شيئًا، هذه أموالُ الشعبِ السُّوداني، سنُعيدها للشعبِ بعد سقوط النظام، نحن لا نحتاج أموال جهاز الأمن، ما نحتاجه فعلًا هو أنت، بثوريتك، وخبرتك، ونحتاج للوثائق؛ للاطلاع عليها، والاستفادة منها.

- هربتُ من الخدمةِ قبل ساعات، ولا مأوى لي.

- المكان عندي.

- أين؟!

- بيتي.

- هنا؟!

- لا، هذا بيت أسرتي، وهو مكشوف لجهاز الأمن، لي بيت آخر بالقرب من هذا الحي لا يعلمه أحد.

- أهو آمن؟!

- أكثر أمنًا مِمَّا تتخيَّل.

- حسنًا، أين ستخبئ الوثائق؟!

- لا أدري.

- ستكون معي في مخبئي.

- كيف سنتواصل؟!

- بأيَّة وسيلةٍ غير الاتصال التليفوني المباشر، استبدلت رقمي، وأرجو أن تستبدل أنت رقمك، بيننا اتصالات أخشى أن يكتشفها جهاز الأمن.

- حسنًا.

- أفضل طريقة اتصال هي الاتصال برقم وسيط قريب من بيتك، كرقم صاحب متجر.

- فكرة رائعة، هات رقمك، سأحفظه في ذهني.

منحته رقمي، قائلًا:

- سأذهب للبيت؛ لوداع أُمّي وأخواتي.

- وأنا سألحق بالاجتماع.

- متى نلتقي؟

- السَّادسة مساء.

- أين؟

- لا أدري، أي مكان آمن.

- مقابر الدخينات.

- ماذا تقول؟! المقابر!

- من الآن وحتى سقوط النظام، سنلتقي في المقابر، وتحديدًا عند قبر أبي.

- لماذا؟! هذا أغرب مكان يلتقي فيه البشر.

- لن يجرؤ جهاز الأمن أن يفكِّر في هذا المكان، ليس لحرمته، فهم لا يأبهون للحرمات، بل لأنهم لا يتوقَّعون أن يلتقي البشر في المقابر.

- كيف خطرت لك هذه الفكرة؟

- هيَّأتُ نفسي اليوم لزيارةِ قبرِ أبي، أعجبتني الفكرة، وفكَّرتُ في استثمارها.

- تفكير ذكي، أين موقع قبر أبيك؟ لا أتذكَّره، فمنذ دفنه لم أذهب للمقابر إلا نادرًا.

- في الركن الشمال الشرقي من المقابر، عليه اسم أبي.

- حسنًا، ماذا عن سيارتك؟

- ماذا تقترح؟

لم ينبس، نزع لوحات سيارته، قائلًا:

- استبدل لوحات سيارتك بلوحاتي.

- إلى اللقاء، في تمام السادسة مساء في المقابر.

ذهبت للبيت، وجدت أُمّي وحدها، ضممتها إلى صدري بحرارة، قالت بحنان:

- كأنَّك مسافر!

- نعم.

- إلى أين؟!

- إلى طريقِ الحَق.

انتابها فرحٌ ممزوجٌ بقلق، مَسَحَتْ رأسي بيدٍ مرتعشة، قائلة:

- قل لي بربك، إلى أين؟!

- إلى مَهمةٍ غامضة، تبدأ بزيارة قبر أبي، وتنتهي بأحلامه.

قالت بتوجُّس:

- قلبي وربي راضيان عنك، طالما سلكت طريق أبيك.

- ما أجملك.

طبعت على خدي قبلةً حارة، وقالت:

- لي طلب.

- بكل سرور.

- خذني معك إلى قبر أبيك، روحي مشتاقة إليه.

- لا يليق بالنساء زيارة القبور.

- شيء ما يشدُّني لهذه الزيارة.

جلسنا على حافةِ القبر، تبكي حبيبها، وأبكي عُمري، قرأتُ آيات من القرآن، وسكبت دعواتها، اقتربت منها، جعلتها تتكئ على صدري، ثُمَّ جعلت

تنوح، انحسر غطاء رأسها، مسحتُ بيدي على شعرها، وقبّلتها على خدها، قائلًا:

- لو رآنا أحد قد يظن أنَّنا عاشقين.

ابتسمت، قائلة:

- لولا عشقي لأبيك، لما أتيت أنت.

- احكي لي عنه، سمعت خالي يقول إنَّه شيوعي، كافر، هل كان أبي كافرًا؟

- الكفر والإيمان ليست أوسمة، أو أختامًا نضعها على الأوراق الثبوتية، ونتباهى بها بين خلق الله، بل هو سلوكك مع الآخرين.

- بمعنى؟!

- أقصد أن الكافر هو من يؤذي الناس، وأبوك لم يؤذِ أحدًا، بل خالك هو من أذاه حدَّ الموت.

- كأنَّكِ تقولين إنَّ خالي هو الكافر، وليس أبي.

- لا أُكفِّر أحدًا، اللّه وحده يُحاسب البشر، هل ترى كلَّ هذه القبور؟ لا أحد يستطيع نبش قبورِ الموتى، وقياس درجة إيمانهم ومعرفة مصائرهم، هل هذا مات كافرًا؟ وهل ذاك مات مؤمنًا؟ وهل انتهى بهم المطاف إلى الجنَّةِ، أم إلى النار؟

- القبور رغم وحشتِها، إلا أنَّها تقرِّبني أكثر إلى اللّه.

- تقبَّل اللّه توبتك.

بكيتُ على صدرِها، قائلًا:

- لا أظن أنَّ اللّٰهَ يقبل توبتي.

- لا تُرِدّد هذا القولَ، دعواتي لك لم تنقطعْ، هي دعوات أمٍّ مظلومة انهكها الظلم والبكاء.

اقترب الوقت من السادسة مساء، قلت لأُمّي:

- أعتذر لك، ستعودين للبيت وحدك، وسأظل هنا وحدي لبعض الوقت.

ضمَّتني إليها ومضت، لوَّحت لي بكفيها، كُلَّما ابتعدتُ أكثر، كلَّما ازدادت بهاءً.

★★★



١٢

رأيتُ سليمان مِن بعيد، بدأ يقترب نحوي، يمشي بخوفٍ بينَ القبورِ، تتعرَّج خطواتُه وتتعثَّر، المشيُ بين القبورِ أمرٌ عَسير، كأنَّه يطأ أرواحًا يخشى إزعاجها، مدَّ يدَه يُصافحني قائلًا:

- تمام السادسة مساء، هيَّا نتحرَّك سريعًا لبيتك الجديد، هذا مكان لا يُطاق.

- خطواتك بين القبورِ تعكس خوفك من المكان.

- لا أحب القبور، ولا ذكرى الموت.

قلت له، ونحن نمشي نحو سيارتي:

- تُرى كم قصَّة وراءَ كلِّ قبر؟

- بماذا تفكِّر؟!

- تجوَّلتُ وتمهَّلتُ بين قبورٍ مُختلفة، هناك قبور بأسماء وتواريخ الوفاة، وأخرى بلا أسماء أو تواريخ، وأخرى مميَّزة بسياجٍ حديدي، بعضها صغير الحجم، وأخرى مطمورة، لا يتبيَّن منها شيئًا، حين نظرت لقبرِ أبي، تعجَّبت من سببِ موتِه، خطر لي خاطر غريب.

- ما هو؟!

- لماذا نكتفي فقط بكتابةِ أسماءِ الموتَى وتواريخ موتهم؟ لماذا لا نكتب على قبورِهم طريقة موتِهم، ولو كان هناك مسؤول عن قتلهم؟

- كيف ذلك؟ وبعضهم ماتوا لأسباب طبيعية مختلفة!

- من ماتوا لأسباب طبيعية، يُكتب على قبورهم ماتوا لأسباب طبيعية.

- ما اعتراضك؟!

- عدم ذكر أسباب الموت على كلِّ القبورِ؛ يساوي بين من مات اغتيالًا مثل هشام، ومن مات بسلاحِ التجويع كأبي، ومَن مات بالتعذيبِ كزوج نادية، ومن ماتوا طبيعيًّا كجدودي، وبين قاتلٍ مثلي، ضحاياه قتلى جهاز الأمن، كحسن ويوسف.

- هل زرت قبر هشام؟!

- نعم.

- كيف عرفت أنَّه مدفون في مقابر (الدخينات)؟!

- لأنَّه من سُكَّان الكلاكلة صنقعت، لذا توقَّعت أن يكون مدفونًا هنا، بحثت بين القبورِ الحديثة، ووجدت قبرَه، وتاريخ اغتياله.

- كتبنا على قبره عبارة "شهيد"، ألا يكفي؟

- بحثت في الوثائق سريعًا، وجدت صورًا لقبري حسن ويوسف لحظة التشييع، ووجدت كلمة "شهيد" مكتوبة أيضًا على قبريهما، وهذا ما يعذِّبني.

- ماذا يُقلقُك؟

- كيف يتساوَى القاتل وضحيَّته في القبور؟ كيف نُفرِّق بين عبارة "شهيد" على قبر هشام، وبين عبارة "شهيد" على قبر حسن قاتل هشام؟ وهل سيُكتب على قبري "شهيد"؟! وأتساوى مع المناضل هشام؟! أم سيُكتب

عليه "شهيد"، وأتساوى مع القاتل حسن؟ أم سيكون قبري بلا تمييز، مثل قبر أبي؟

- ألهذا الحد أنت قلقٌ ومُتعب؟!

- أتعذَّب في كلِّ لحظة من حياتي، لا أدري كيف أغتسل من جرائمي؟! لا أدري كيف أمحو من ذاكرتي مقتلي لحسن ويوسف؟ وماذا أفعل بأموالي التي اكتسبتها من عملي بجهاز الأمن؟ وأتمنى أن أُدفن بطريقة معيِّنة، لذلك فكرت أن أكتُب وصيَّةَ موتي.

- لا بأس من كتابة وصايانا، من سيفتح وصيَّتك؟!

- أنت، وأُمِّي، ونادية.

- لم يخطر ببالي أن أكتب وصيَّتي، أو أفتح وصيَّة أحد، ربَّما لأنَّني لا أُفكِّر كثيرًا في الموتِ، يبدو أنَّك تُجيد كتابة أفكارك.

- كنت في بعض فترات حياتي، أكتُب بعضَ القِصص والخواطر، وأمزِّقها.

- لماذا؟!

- شعرت أنَّها غير جديرة بالنشر، كنت طوال عمري تائهًا بين حلمي بأن أكون مثل أبي، وبين واقعي الَّذي رسمه لي خالي، وبعد تجربة عملي بجهاز الأمن وانضمامي للثورة، صارت حياتي أجمل وأعمق، وشعرت بأهميةِ كتابةِ وصيَّة مَوتي الآن.

وصلنا لسيارتي، انتزعنا لوحاتَها، واستبدلناها بلوحاتِ سيارةِ سُليمان، وبعد دقائق تفقَّدتُ بيتي الجديد. قال سليمان:

- هذا البيتُ لك، رغم بساطته، فهو يليق بك.

- يكفي إحساسي فيه بالأمان.

- تنقصه خدمات الكهرباء والماء، سأقوم بإعادتهما في أقربِ فرصة، ويحتاج أيضًا لنظافةٍ، وإعادة ترتيب.

- سأقوم باللازم، كيف كان اجتماع اليوم؟

- كان اجتماعًا ناجحًا، أبلغتهم أخبارك، أرسلوا لك التحايا وطمأنتهم على أحوالك.

- هل سألت عنّي نادية؟

أخرج ورقةً من جيبه، خطفتها بسرعة، وقرأت:

"وصلتني أخبارك السعيدة، طار قلبي من نشوةِ الفرحِ، حتى وصل شاطئِ قلبك، وحطَّ عليه كنورسٍ مُتعب، أكتُب إليك بكفٍّ ترتعش من فداحةِ الحرمان، لي دينٌ عندك، استولى عليه أصبعك بكلِّ قساوة، وحان وقت سدادِه، لو عجزت عن السَّداد، تيقَّن أنَّني لن أعتبره دينٌ هالك.

التوقيع: بائعةُ شاي ماهرة، فقدت سلعتها مذاق الارتشاف.

قرأت الرسالة مرَّات عديدة، تحسَّستُ الخاتَمَ، لا يزال نائمًا في إصبعي، أيقظته بمسحة من يدي، قائلًا:

- لا أعرف كيف أشكرك؟!

- بمراجعة الوثائق التي بحوزتك.

- أنا جائع.

- سأغيب قليلًا، وأعود بطعامٍ، وشرابٍ، وشموع.

عاد سُليمان يحمل أغراضًا كثيرة، بعد الأكل، قلت له:

- سامحني يا صديقي، كلَّفتُكَ بما لا طاقةَ لك به.

- لا تحمل همِّي.

- لي سؤال، وأتمنى ألَّا أكون مُتطفِّلًا.

- هات سؤالك.

- هل كنت تعيش في هذا البيت؟ ومن أين لك ببيتٍ خاص مُكتمل الأثاث، وسيارة؟

- أعيش حياة ميسورة الحال، أعمل بمقاولات البناء منذ فترة طويلة، ثُمَّ ورثت عن أبي ما ورثه عن أبيه، أمَّا هذا البيت، فله قصَّة.

- ما هي؟!

- كنت أنوي الزواج، هيَّأتُ البيتَ، وفشل الزواج في آخر لحظة.

- مِن سوء حظها.

- بل من حُسن حظك.

- ماذا تعني؟

- كأنَّني أرى زوجتك نادية تعدّ لنا وجبةَ عشاء.

- ليت هذا الحُلم يتحقَّق، لكنَّه بعيد المنال.

على أكوابِ شايٍ، وتحتَ ضوءِ الشُّموعِ، جلسنا لساعاتٍ؛ نقرأ الوثائقَ والمستندات، ونبحث كيفية الاستفادة منها، بحثت في المستندات بنَهم، كُل تركيزي على معلومات عن وليد، من المتوقع امتلاكي لعقار في كافوري، لن أسمح لخالي باسترداده، ولن أتركه يضيع من يد الشعب، وجدت أوراقًا

ملكيَّةً لعقارٍ باسم خالي، ومع الأوراق كارت يحمل اسم وليد، ورقم هاتفه، وعنوان مكتبه، قلت لسُليمان بفرح:

- أخيرًا توصَّلت لمعلومات وليد.

قال بدهشة:

- مَن وليد؟!

- أهداني خالي عقارًا في كافوري، أوراق العقارِ مع وليد، كيف نستعيد هذا العقار، ونردُّه للشعب؟!

- هل يعمل وليد لدى جهاز الأمن؟ أم متعاون؟ أم هو صاحب مكتب عقارات؟

- لا أدري.

- متى أهداك خالك هذا العقار؟

- قبل أيام قليلة.

- ربَّما كانت خدعة من خالك، ليس من الحكمة اتصالك بوليد، قبل أن نتأكَّد من طبيعةِ عملِه، ومن وجودِ عقار باسمِك، رُبما يتآمَر عليك.

- والحل؟!

- سأحتفظ بمعلوماته، وأناقش الأمر في اجتماعاتِ لجانِ المقاومة.

- فكرة جيِّدة.

سلَّمتُ سُليمان مِلفَ المُعتقلِ الَّذي اتفقت معه على تهريب المعتقلين، كتب تقريرًا حول الوثائق، انتصف الليلُ، وأدركنا التعب، قال سُليمان:

- أراك غدًا.

- في انتظارك.

- أتمنى ألَّا تخرج من البيتِ لأيِّ سبب، لو تعذَّر حضوري ليومين، فاعلم أنَّني مُراقب، أو تمَّ اعتقالي، في هذه الحالة عليك بالذهاب لمقبرة أبيك كُل يوم في السَّادسة مساء.

- اتفقنا، لا تقلق، ولا تنسَ أنَّني رجلُ أمنٍ سابق.

- أرجو أن تنسى أنت ذلك.

- لي طلب.

- ما هو؟

- أُمِّي، وأخواتي.

- يقيني أن بيتكم مراقب، اختفاء الوثائق والأموال، وتمرُّدك على جهاز الأمن، يصعب مساعدتهنَّ بشكلٍ مُباشر.

- أعلم ذلك، ولا أخفي عليك مدى قلقي عليهن.

- ماذا يقلقك؟

- اعتقالهن كرهائن؛ لإجباري على تسليم نفسي.

- لن يفعلها خالك، لا أظن أنَّه يصدر أمرَ اعتقالٍ ضد أخته وبناتها!

- هذا لو أنَّه لا زال في وظيفته الحقيرة، ولم يتمرَّد بالهرب.

- هل لديك اقتراح ما؟!

- مثل ماذا؟

- أن ترغب في استضافتهّن معك هنا.

- مستحيل.

- لماذا؟ هل لأسباب أمنية؟

- بل لأسباب أخلاقية.

- بمعنى؟

- لو كان هذا البيت ملجًا آمنًا من عيون جهاز الأمن، فبيوت كثيرة أولى بالاحتماء به، وليس أهلي.

- ما أنبلك، ما الحل لأهلك؟!

- لا أبحث عن حلٍّ، فأنا نفسي مشكلة تبحث عن حل، فقط قلقٌ عليهن.

- سأحاول أن أعرف أخبارهن، وطمأنتك متى ما سمحت الظروف.

- عاجز عن شكرك.

ابتسم، ومضى وهو يلوّح بعلامةِ نصرٍ حقيقية، مرفوعة لأعلى.

في نهارِ اليومِ التالي، جاء سُليمان يحمل أغراضًا كثيرة، كنت مسهَّد الجفون، قال لي:

- كأنَّك لم تتذوَّقْ طعمَ النَّومِ.

- حاولت، وفشلت.

- ما الأمر؟!

- أمر يؤرِّقني، ربَّما أجد صعوبة في شرحِه.

- هات ما عندك.

- هذه ثورة عظيمة، تُقدِّم الشهداء والتضحيات، ثورة بُذل فيها الدماء والمال، والوقت، والمجهود الذهني، وقفتُ في طريقها لسنوات، وارتكبت ما

ارتكبت من جرائم ضدَّ هذا الشعب، وفجأة بين يوم وليلة، أتسلَّق شرف انتمائي لها بعد أن أوشك النظام على السقوط، كيف أغفر لنفسي سنوات من الجرائم والخيبة؟

- هل سألت نفسك لماذا نخرج في مظاهرات؟

- للتعبير عن رفض سياسات النظام.

- ولسبب آخر لا يقلّ أهمية.

- ما هو؟

- لإحداث شرخ في تركيبة المؤسسة العسكرية والأمنية، وتكون النتيجة تمرُّدهم على النظام كما حدث لك، أنت لست مجرَّد ثائر عادي، أنت أحد أهمّ ثمار ثورتِنا المجيدة.

- ضميري يُعذِّبني، بالأمس جلست مع أُمّي على قبرِ أبي، طلبت توبة دينية، أغدقتني بالدعاء، اليوم أقف أمامك طالبًا توبة سياسية.

- ماذا تعني؟!

- أعني أنَّني متهمٌ أمامَ نفسي في قضايا ضدّ الشَّعب، ويجب محاكمتي في محكمة الشعب.

- قد يبدو حديثك سابقًا لأوانه.

- متى أوانه؟!

- بعد سقوط النظام.

- هذا النظام يترنَّح، بينه وبين السُّقوط خطوات.

- سنناقش هذا الأمر مستقبلًا؛ لأنَّ هناك خبر جميل.

- ما هو؟!

- نجح المعتقلون في الفرار من المعتقل.

- ما أسعدني بهذا الخبر.

- الشارع سعيد بسببك.

- هل هناك أخبار عن خالي؟

- لا.

- ستكون هناك حملة اعتقالات كبيرة مساء اليوم.

- أو تحقيقات واسعة في كيفية هروب المعتقلين.

- هذه ضربة لم تخطر ببال الطغاة، سيحاول جهاز الأمن استرداد كرامته؛ بإعادة اعتقال الشرفاء، وتغيير أماكن احتجازهم، قبل البدء في التحقيق.

- أظن ذلك، والشائعات تملأ الشوارع.

- ماذا يقولون؟

- أنَّ هناك تمرُّدًا في جهازِ الأمنِ، واختفاء أعدادٍ كبيرةٍ من السِّلاح.

- هذه الشائعات أطلقها جهاز الأمن نفسه.

- كيف؟! ولماذا؟!

- تمرُّد جهاز الأمن المقصود به أنا، وهو حقيقة، أمَّا اختفاء السَّلاحِ مقصود به إرهاب الشعب؛ لتصوير ثورتنا أنَّها ليست ثورة سلمية.

- هذا مؤشر وانزلاق خطير؛ لكسر شوكة الثوَّار؟

- ما العمل؟!

- يجب مناقشة هذا الأمر في اجتماع لجان المقاومة والأحياء، سأذهب لحضور اجتماعي اليومي، وأعود إليك مساءً.

- لا أحتاج لسيارتي، يمكنك قيادتها.

- من الأفضل ترك السيارة داخل بيتك الجديد، ربما عمَّم جهاز الأمن معلومات السيارة، لذا أخشى حملات تفتيشٍ مُفاجِئة، وتوريط نفسي.

★★★



I am Sorry !!!!!


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

١٣

خرجَ سُليمان، تركني لعواصف مِن حصى الخوفِ، ورمالِ الترقُّبِ المتحرِّكة، حَدْسي الأمني يُنبئُ بكارثة، بحثتُ في الأغراضِ التي جلبَها، وجدتُ فيها دفترًا وقلمًا، وكنت في توقٍ للكتابة.

قضيتُ اليومَ أكتُب وصيَّتي، وأنتظر مجيءَ سُليمان، فاجأني النُّعاسُ، صحوتُ في اليوم التالي، قضَيتُ اليومَ في الكتابةِ بنصفِ حواس، والنصف الآخر ينتظر قدوم سُليمان، لم يظهر مساء الأمس كما وعدني، زاد قلقي وتوتُّري، فكَّرت في الاتصال به وتراجعت، لا أودُّ تعريضه وتعريضي للخطر، سأنتظر يومًا آخر.

لم يظهرْ سُليمان في اليوم التالي، تأكدت أنّه تعرَّض لمكروه، ذهبت للمقابر في تمام السادسة مساءً، رأيت أحدًا بالقُرب من قبرِ أبي، قال لي بهدوء حزين:

- جهاز الأمن يبحث عنك، داهموا منزل سُليمان، وتمَّ اغتياله في بيته.

حفر بكلماتِه قبريَ، قلت بحزنٍ هائل:

- ماذا تقول؟!

قال بألم:

- قتلوه بوحشية، وحملوا جثَّتَه وهربوا، يبدو أنَّه تعرَّض لتعذيبٍ بشع، من المؤكد أنَّهم حاولوا انتزاع معلومات عنك، ورفض الإفصاح، تبًّا لهم.

تشنَّجتُ من شدَّة النحيب، ضربت بيدي على الهواء؛ أبحث عن شيءٍ يسند حزني، ضمَّني إليه وهو يبكي، حاولنا التماسك، وكان سيل الانهيار.

جلسنا على أرضٍ تفتَّقت جراحُها بالموتِ، أيُّها الموتى الكرام، دخل اليوم عالمكم إنسانٌ دهسته عربة الجُبن، وقدَّمته وليمةً للتُّراب، أيُّها الموتى الكِرام، هل قابلكم موت في طبق من الحُبِّ مغطًّى بعلمِ الوطن؟! لو صادفتموه، اعلموا أنَّه سليمان، افسِحوا له مكانًا؛ حتى يرقد بينكم كحديقة مليئة بالزهور، تنشر الجمالَ، وأريج الفرح.

أيُّها الموتى الكِرام، اطمئنوا، لن يزعجكم سُليمان بهتافات الثورة، ولا بتقارير لجانِ المقاومة، ولا بطريقةِ موتِه، سينام معكم مشغولًا بالاعتناء بشجرة النضال.

لملمتُ أشلاءَ روحي، ونهضتُ مُمسكًا بيدِ رفيقِ سُليمان.

قلت له وأنا أتَّكئُ على بكائي:

- هل بإمكانك أن تسندني؟

مسكني بيديه الاثنتين حتى نهضت، قال لي وهو يضع ورقةً على جيبي:

- في هذه الورقة ستجد تفاصيل مُهمة، توضِّح طريقة التواصل بيننا، وحده سُليمان يعرف مكان سكنك، أرجوك اذهب لبيتك الآن لضرورات أمنية، لا تدع أحد يعرف مكان سكنك مهما كانت صلته بك، ولا تخرج من بيتك مهما كان السبب، حتى للضرورات القصوى، كُلُّ أجهزة الأمنِ تبحث عنك في كلِّ مكان، هناك أرقام تلفونات في الورقة، اتصل بأيِّ رقم وسيصلك طعامك بطريقةٍ آمنة.

غادرت المقابر بصعوبة، لا أدري كيف وصلت للبيت، سألت الشوارع والطُّرق، لماذا افتدى سُليمان روحه مقابل روحي؟ لماذا فَضَّل حياتي على حياته؟ ولماذا حمَّلني مسؤولية فداحة فقدانه؟ وكيف يكون ردّ الجَميل؟

قرأت الورقة الأولى، عليها أرقام تلفونات وأسماء، يبدو أنَّها أسماء حركية، مع كُلِّ اسم كلمة سر مختلفة، وهناك أرقام أخرى تختص ببعض المحلات والمطاعم، مع خدمة توصيل الأكل للزبائن.

واسم ورقم تليفون لمحامٍ مع كلمة سر معقّدة.

على الورقة الأخرى عبارة جعلتني أجهش بالبكاء:

"حاول سُليمان الاستفسار عن طريقة إدخال الكهرباء والماء لبيتك، طالبوه بأوراق ثبوتية، ومعلومات عن موقع البيت، خاف أن يتوصَّل جهاز الأمن لمكان بيتك، وقرَّر عدم إدخال الكهرباء والماء في البيتِ؛ حتى يحافظ على حياتك، وحين شعر بدنو أجله، ترك لك توكيلًا شاملًا مع محامٍ ثوريٍّ، بهذا التوكيل صرت الآن مالكًا لهذا البيت، ويمكنك التصرُّف فيه كيفما تشاء، وترك لك بعضَ الأوراق مع المحامي.

وعلى الجانب الخلفي من الورقة رسالة تقول:

" المعتقلون الَّذين خرجوا من المعتقل، يُشيدون بدورك في تحريرهم وفي دعم الثورة، ويقولون لك أنَّهم لن ينسوا هذا الدور، وهُم جميعًا بخير وأمان."

الورقة الثالثة كانت رسالة من نادية:

" أعلم أنَّها فجيعة قاسية، وأعلم أنَّنا سنتجاوز هذا الحزن العاصف، من أجله ومن أجلنا، ومن أجل الوطن.

لو حدث لي مكروه، فاعلم أنَّني أنتظرك في مكانٍ ما من العالم الآخر، وإنَّ وصيَّتي أن أُدفن قُرب قبر أبيك، لعلَّك تأتي بعد رحيلي وتُدفن قربي".

التوقيع:

بائعةُ شاي ماهرة، تبقَّى لها كوبٌ أخير أعددته لك، كوبٌ ليس للبيع.

قرأت رسالتها خمس مرات، بكيت، شيءٌ ما يجعلها تكتُب بصيغة الرحيل، إنسان يودِّع الحياة ولا يأبه، هل هي في خطر؟! أم رحيل سُليمان جعلها تتحسَّس أوراقَ شجرةِ النِّضال؟ هل كوبها الأخير يعني آخر ورقة في الشجرة؟! أيُّ عجزٍ هذا الَّذي يجعل من رجل درس في الكُليَّة الحربية يختبئ في بيت، وأن يجعل من امرأةٍ مثلها تواجه الموت بشجاعة؟

أيُّ مصيرٍ بائسٍ هذا الَّذي يجعل سُليمان يقدِّم نفسَه كبش فداءٍ من أجلي! ويمنحني روحَه وبيتَه مجانًا؟! ويجعلني قابعًا في بيتِه كجرذٍ يرتعش خوفًا من جهاز الأمن!

لأيِّ حدٍّ سُليمان ونادية أبطال؟ ولأيِّ حدٍّ أنا بائس جبان؟ كلُّ بطولاتي أنَّني سرقت أموال ووثائق جهاز الأمن، ومهَّدت للمُعتقلين الهرب، عشتُ حياتي كلُّها خائفًا وجبانًا، حتى حين قرَّرت أن أكون ثائرًا، انتهى بي المصير في عملية بيع وشراء لم تحدث في الكون، اشتريت بيتًا، دفع البائعُ حياتَه ثمنًا لهذا الشراء.

إلى متى أظلُّ هنا؟ تُطعمني وتحميني لجان المقاومة! لا، لن أقبل أن أكون عبئًا على النضال، ولن أقبل بهذا المصير المُخزي.

لماذا لا أتزوَّج نادية؟ وأحميها في بيتي من جهاز الأمن؟ مُجرَّد ورقة صغيرة يشهد عليها اثنان، وتكون حلالي وتسكن معي في بيتي؟ ماذا عن أبيها

وأطفالها؟ وماذا عن أُمِّي وأخواتي، أيُعقل أن يسكنوا جميعًا معي؟! وكيف أتحمَّل نفقاتهم وأنا بلا عمل؟! وكيف أواجه ضميري الثوري؟ أن أجعل من بيتِ سُليمان مأوى لي ولأسرتي من جهاز الأمن، وأترك الشعب وحده يواجه جلَّاده؟ وهل تقبل نادية؟ لا أظن جسارتها تقبل بهذه الفكرة، حتى لو كانت فكرة شرعية كالزواج، هل الزواج جريمة أوان المعارك النضالية؟ أم هو حق إنساني طبيعي لا يتعارض مع مبدأ النضال؟

★★★

١٤

في اليوم التالي، سمعتُ أصواتًا هادرة، نظرت بفتحة الباب، رأيت أعدادًا كبيرة من البشر، يهتفون:

" لا إله إلا الله، والكيزان أعداء الله".

تتَّسع التظاهرات، ويعلو الهتاف أكثر:

"رُص العساكر رص، الليلة تسقط بس".

وهتاف آخر:

"دم الشهيد بي كم؟

ولّة السؤال ممنوع؟".

تسلَّقتُ حائطَ الخيبةِ، شاهدتُ جموعًا لا أولَّ لها ولا آخر، سيارات جهازِ الأمن والشرطة موزَّعة في اتجاهات عديدة، رأيت بسالة الثوَّار بعيني، رأيتهم وأنا مُمعن في الخفاء، وهم مكشوفو الصدور، وفي وسط المتظاهرين تأمَّلت فتاة تتوكأ على عكازين، أفسح لها الثوَّار مكانًا بينهم؛ حتى لا تسقط من التدافع، شعرت بالخجل من نفسي، فتاة من ذوي الاحتياجات الخاصة تخرج للشوارع وتواجه الموت، ولا تستطيع المشي أو الفرار، وأنا رجل بكامل قوَّتي مُختبئ في بيتي خوفًا على مصيري، فاحت روائح الغاز المُسيّل للدموع، نزلت من الحائط، غطيت وجهي بيدي، ودلفت لغرفتي وتمدَّدتُ على فراش الأسى.

انقضى النهار، هدأت المظاهرات، شعرت بجوعٍ هائل، لا طعام لي، كيف أطلب من لجان المقاومة طعامًا، وأنا مُختبئ في البيت، وهم يواجهون الموت في الشوارع؟

اتصلت بأحد أرقام الهواتف، لم ينجح الاتصال، عاودت الاتصال برقم آخر، أتاني صوت، أخبرته بكلمة السر، قال إنَّه في اجتماع لجنة أحياء الكلاكلات، أخبرته بحاجتي لطعام، طلب مِنّي الانتظار وسيعاود هو الاتصال.

قُمت بشحن هاتفي من سيارتي، رنَّ الجرسُ، طلب لقاء في المقابر، في السادسة مساء اليوم.

كان هو، نفس الشاب الَّذي أخبرني بوفاةِ سُليمان، سلَّمني الطعامَ وورقةً وضعتها على جيبي ومضيت.

أكلت بنهم، وفتحت الورقة:

"تعرَّضت صباح اليوم لأبشع مأساة في حياتي، تمَّ اعتقالي، سألوني عن مكانك، كانت إجابتي النفي، تناوب الأشرار على اغتصابي، وتركوني مُمدَّدة على وسادة الموت، قالوا لي إنهم فضَّلوا اغتصاب حبيبته أوَّلًا، ولو لم يُسلِّم نفسَه، سنغتصب أخواته وأُمَّه، ولو كان يظن أنَّ خاله سيحميهم، فخاله من ضمن المعتقلين.

لا تُسلِّم نفسك مهما كان، ولن أسمح لهم بالاقتراب منك، حتى لو تناوب كُلُّ أفرادِ جهازِ الأمنِ على اغتصابي.

كلمة أخيرة، لم أعد أصلح للزواج، ولا أطلب مواساة منك، ولا من أيِّ أحد، كلُّ ما أطلبه أن تظل بمخبئك.

التوقيع:

بائعة شاي ماهرة، انسكب كوبها الأخير، ولم تعد صالحة للزواج.

نزلت مِنيّ دموع القهر، إلى أيِّ فصائل الكائنات ينتمي أفراد جهاز الأمن؟! ومن أيَّة سلالة؟! أهُم بشر طبيعيون؟ يأكلون ويعشقون ويتزوجون ويتناسلون؟!

هل وصل بي العجز أن أظل صامتًا ونادية تُغتصَب؟! ومن أجل حمايتي؟! تذكَّرت حديثها حين قالت، إنَّ الاغتصابَ أسوأُ من الموتِ، يبدو أنَّ هذا هو شعورها الآن.

حتمًا سيعتقلون ندى، وتوءَمي نجوى وأُمِّي، ويغتصبونهنَّ كما اغتصبوا نادية، هل أظل في مخبأي، وأنتظر الأخبار؟! أيّ عجزٍ مقيت هذا، وأيُّ مصير؟ ليتني استوليت على مخازن السِّلاح قبل تمرُّدي، وأسقطت هذا النظام، ما جدوى نضالنا السلمي أمام نظام قاتل، لا يأبه لأيِّ فعل من أجل الحفاظ على السلطة، وكلُّ هذا باسم الدين!

أيقنت أنِّي لا محالة هالك، الأفضل لي تسليم نفسي على القبول باغتصاب أُمِّي وأخواتي، ولكن من يضمن لي أنهن لن يُغتصبوا حتى لو سلَّمت نفسي؟ فجأة خطر لي خاطر مزعج، ماذا لو اغتصبوني أنا كما فعل حسن بغسان؟! شعرت برغبة الانتحار، الانتحار أفضل من العجز.

طاف بي شريط حياتي منذ الطفولة وحتى هذه اللحظة، كيف تدخَّل خالي في حياتنا، واستغل أبي، وحاول كسر إرادته حتى فضَّل أبي الموت على الخنوع؟ كيف بدأت حياتي برغبة تعلُّم الفنون الجميلة، وانتهت بي أحلامي لضابطِ أمنٍ قاتل؟! كيف أنني رجل البيت الوحيد، أُعرِّض حبيبتي وأمِّي

وأخواتي للاغتصاب، بدل حماية حياتهنَّ من الاعتداء؟ أيُّ رجلٍ أنا؟ وأيُّ بؤس هذا؟!

أعاني من شُح الماء والإرادة، لا أستطيع الخروج للشارع، ولا أطيق البقاء في البيت عاجزًا، الشوارع تعزف أنشودة الخلاص، وقلبي يرتعد من الخروج، كلُّ يوم أسمع أصواتَ الشرفاء يهتفون، أتخيَّل نفسي أقود هذه التظاهرات، وأحيانًا أجدني سقطت شهيدًا مُضرجًا، الشهادة أفضل من الانتحار، والموت وسط الشرفاء، أفضل من قتل نفسي وحيدًا بين جدران الخوف.

ينتابني القلق على نادية، قرأت رسالتَها مرَّة أخرى، رسالة مليئة بالانكسار، لم تكن نادية منكسرة في يوم من الأيام، كانت دائمًا قويَّة وصابرة، ومتفائلة، تيقَّنت أنَّ الاغتصابَ أسوأ وسائل التعذيب والانتقام.

صرت رهين العذاب، سُليمان مات بسببي، ونادية أُغتصِبت بسببي، وأمي وأخواتي في طريقهنَّ لتضحية ما بسببي أيضًا، ماذا أفعل؟! طنينُ الأسئلةِ يتربَّص بي، ويجرُّني لعتمة العجز. تقول نادية أنَّ خالي مُعتقل، تُرى ما السبب؟! هل حاول الهرب خارج السُّودان؟ هل شعر بدنوِّ أجله وتمرَّد مثلي؟! أم هو متهم معي في قضية مقتل حسن ويوسف؟ لا يعنيني مصيره؟ ما يعنيني هو خروجي من هنا، وسقوط النظام.

أعيش في أغرب أنواع السجون، سجن اختياري، انفرادي، أمتلك مِفتاحَه، ولا أستطيع الخروج، هرشت جسدي، هتفت مسامات جلدي برغبة الاستحمام، لا أذكر آخر مرَّة استحممت فيها، الماء شحيح، بالكاد يكفي شرابي، ليس من العدل إزعاج لجان المقاومة بطلب ماء للاستحمام، مهامهم الوطنية أعظم من استحمامي، خطر لي الذهاب للنهر للاستحمام،

يقيني أنَّ أجهزةَ الأمنِ لا تهتم بالأنهار والمقابر، لن يخرج من النهرِ ثائرٌ يسعى لإسقاط النظام، ولن يخرج الموتى من قبورِهم للتظاهر، لابدَّ من الخروج من هذا السجن القاتل، تذكَّرت عبارة نادية تستحلفني البقاء في البيت، أعلم أنَّ كل أجهزة الدولةِ تتربَّص بي، لا بأس من المُخاطرة قليلًا، طرقتُ بابَ جاري، نظر إليَّ مشدوهًا، قال دون تحيَّة:

- مَن أنت؟!

شعر بالفزع، يبدو أنَّ مظهري مخيف، قلت له محاولًا امتصاص خوفه:

- جارك، اشتريت هذا البيت، و..

قاطعني قائلًا:

- تمتلك مالًا لتشتري بيت، ولا تجد مالًا لتستحم وتستبدل ملابسك؟

- لذلك طرقت بابك، كلُّ ما أحتاجه هو الماء.

عيناه تقول أنَّه يستشير عقله، هذه فرصة عظيمة يجب اغتنامها قبل أن يفيق من تفكيره، سألته حتى أطمئن لميوله، واستدراجه لمعرفة هل هو مع النظام؟ أم لا؟ أردفت قائلًا:

- قدمَّت طلبًا لإدخال الماء والكهرباء في بيتي، ولأنَّني ضد مبدأ الرشوة لا يزال طلبي تحت طاولة النسيان.

وقع في الفخ سريعًا حين قال:

- وسيظل تحت الطاولة، إلا إذا دفعت لهم رشوة.

قلت له مُمعنًا في استفزازه؛ لاستخلاص عصارة انتمائه السياسي:

- متى يزول هذا النظام البغيض، وتعود للخدمة المدنية شرفها.

تحمّس قائلا":

- هذا النظام ساقط لا محالة، بل هو سقط بالفعل.

ابتسمت، هذا جار رائع، يحمل جينات ثورية، قلت له:

- أرجو أن تتقبَّل اعتذاري، وأتمنى ألَّا يكون طلبي ضايقك.

- إطلاقًا.

- كيف ستمدُّني بالماء؟!

- والكهرباء أيضًا.

- الماء أوَّلًا، حاجتي إليه عاجلة.

- انتظرني قليلًا.

- بكل سرور.

قال لي بصوتٍ عالٍ من داخل بيته:

- سأضع خرطوم مياه على حائطك.

دخلت بيتي، في ركن الفناء، تجرَّدتُ تمامًا من ملابسي، انتظرت قليلًا، أخيرًا نضح الماءُ على جسدي، شعور فادح بالراحة، جعلني أشدو بغناء الثورة:

"من حقّي أغني لشعبي.

من حق الشعب.... عليّا".

ها هو جاري يردّد خلفي:

"لا بي إيدك تمنع.... قلبي.

ولا قلبي كمان... بي إيديا".

تيقَّنتُ أنَّ هذه ثورة عظيمة، ثورة يشتعل نشيدها في الشوارع والمعتقلات، وبين حوائط الجيران.

قال لي من خلف الحائط:

- ما اسمك؟

- أشرف.

- اسمي طارق.

- لي الشرف.

- ستجدني في انتظارك في الشارع، ريثما تنتهي من استحمامك.

- بكلِّ سرور.

خرجت للشارع في كامل الزهو، فركت شعري وهو يقطر، وجدته في انتظاري، ابتسم، قائلًا:

- نعيمًا.

- أنعم الله عليك.

- آسف لسوء استقبالي.

- لا عليك.

- نقع كثيرًا في كارثة التفكير النمطي.

- بمعنى؟!

- تمتلك بيتًا، وتبحث عن ماء استحمام، وأستأجر بيتي وأنعم بالماء؟!

- ليست السعادة فيما تملك، السعادة في لذَّة العطاء.

- للعطاء حدود.

- ليس صحيحًا، عطاؤك أسعدني، وكان كبحر لا ساحل له ولا حدود.

- مجرَّد قطرات ماء.

- الماء أجمل العطاء، به تنقذ روح إنسان وبهيمة.

- شركاء نحن في ثلاث، الماء والكلأ والنار، حين رأيتك قبل قليل مُتسخًا كنت فقيرًا في نظري، وكنت أغنى منك، استنكرت عليك امتلاكك للبيت، بعد دقائق صرت أغنى مِنّي، وتبدَّل الحال.

- هذه هي الحياة.

- بكم اشتريت بيتك؟

- بعطاء بلا حدود.

- كم سعره؟

- قدَّم لي البائعُ روحَه وبيتَه ومضى.

قال بدهشة كالصاعقة.

- هل مات سُليمان؟

انتبهت لحقيقة أنَّهما جيران، قلت له:

- هل تعرفه؟

أجهش ببكاء مرير، قائلًا:

- كان أخًا وصديقًا ومناضلًا.

هيَّا بنا نُكمل الحديث في بيتي، دلفنا للداخل، جلوسًا على الفناء قلت له:

- تمَّ اغتياله قبل أيام.

نزلت دموعه، مسحها بطرف جلبابه، وهو يشهق ويرتعش من فرط البكاء، قال بحزن:

- لا علم لي بأخباره، كنت مُسافرًا، ورجعت أمس ليلًا.

- أتعتقد أن بيتي مُراقب من جهازِ الأمن؟!

- لا، لا أظن، لماذا؟!

- ثقتي فيك كبيرة يا طارق.

- ما الأمر؟!

- وسيكون حديثنا سرٌّ بيننا؟

- أعدك بذلك.

- الأمر في غايةِ الخطورة، ولا يتعلَّق بحياتي وحدي.

- لا تقلق.

- أنا مطاردٌ من جهازِ الأمن.

- لا جديد، كلُّ الشرفاء مطاردون من جهازِ الأمن هذه الأيام.

- مطاردتي تختلف، مطاردة استثنائية.

- كيف؟! قلت لي أنَّ سُليمان استشهد دفاعًا عنك، ومنحك البيت، اشرحِ لي ما تقول.

- هذا حديث يطول شرحه.

- لي رغبة بمساعدتك، ولا أدري كيف؟

- أُمِّي وأخواتي في خطر، هدَّدهنَّ جهازُ الأمنِ بالاغتصابِ؛ لإجباري على تسليم نفسي.

- يا إلهي، بيتي مفتوح لهنَّ ولك.

- بيت أسرتي مُراقَب.

- هل تأكدت؟

- بكل ثقة.

- وكيف نستطيع مساعدتهنَّ.

- الخطوة الأولى، هي ذهابي خلسة لبيتي؛ لمعرفة حجم القوَّة التي تحاصرهنَّ.

- لا، لا تظهر أنت في الشارع، هذا فخ لاصطيادك، سأذهب وحدي.

- لا، لن أقبل بتضحية أخرى تُضاف لخيبات هزائمي.

- لي صديق أثق به يعمل في الشرطة، لن يشك أحد في ظهوره حول بيتكم، سأطلب منه المساعدة.

- فكرة رائعة.

- ألديك خطَّة؟

- لا، فقط أود أن أعرف حجم القوَّة التي تُحاصر المكان، وأماكن تواجدها.

- أين موقع بيتك؟

رسمت له وصفًا دقيقًا لموقع بيتنا، كتبت له اسم أُمِّي وأخواتي، قام بالاتصال بصديقه الشرطي، طلب منه التسكُّع بصمتٍ حول الشوارع التي تحيط ببيتنا، وأن يجمع كُلَّ معلومات عنهنَّ بسرِّية تامة، وحذر شديد.

في نهار اليوم التالي، ناداني طارق عبر الحائط، طلبت منه الدخول، قال لي بحُزن:

- أُمُّك وأخواتك في المعتقل.

- هل اغتصبوهنَّ؟

عيناه تحاول الإنكار، قال بجزع:

- لا أدري.

- أصدقني القول.

- كما قلت لك، لا أدري.

- أيمكنك الاتصال بصديقك الشرطي، سوف أسأله بنفسي.

اتصل به، أتاني صوت الشرطي فاترًا، قلت له:

- أصدقني القول، هل اغتصبوهنَّ؟!

- نعم.

- كلهن؟!

- للأسف.

تفرَّستُ ملامحَ الفراغ، هواءٌ حار يخنق صدري ومعصم روحي، فلتت مِنّي آهة حنق، قلت له بصوت كالفحيح:

- كيف عرفت؟

- لي صديق يعمل بجهاز الأمن، أخبرني بذلك.

- ما اسمه؟

- اعذرني، لا أستطيع.

- هل حكى لك عن كيفية التحقيق معهنَّ؟

- لا تفاصيل.

- أشكرك.

- آسف لنقل أخبار سيئة، حاولت مساعدتك، وفشلت.

- لا عليك، أشكرك.

ضمَّني طارق إليه، قائلًا:

- حاولت إخفاء الحقيقة عنك؛ حتى لا يصدر منك رد فعل أحمق وتضيع حياتك.

- ما فائدة حياتي بعد اليوم؟!

- صدِّقني، سيذهب هذا النظام اللعين قريبًا، وسنحاسب كل مُجرم.

- هناك جرائم كالاغتصاب يصعب المحاسبة فيها، فمن الصعب تحديد هويَّة المجرمين، وحتى لو استطعنا الوصول إليهم ومحاكمتهم، فكيف نسترد شرفًا ضاع بلا رجعة؟!

- لا تبحث عن العدل في الدنيا فقط، ولا تنسَ أنَّ اللهَ موجود، يُنزل عقابه متى يشاء.

- لابدَّ من الانتقام لهنَّ.

- لا تجعل ثأرك يُعميك، ولا تجعله ثأر شخصي، فما حدث لهنَّ يحدث في دارفور منذ سنين، وتحدث انتهاكات مروّعة في مناطق عديدة من الوطن.

- وجعي لا يُوصف.

- ووجعهنَّ، وأوجاع هذا الشعب لا تُحتمل.

- ما الحل؟!

- أهناك أحد يسأل هذا السؤال؟ الحلُّ نراه كل يوم بأعيننا، الحلُّ هو هتافات الشارع، الحلُّ هو التعبير السلمي؛ لاسترداد وطن مسروق.

- لن أختبئ هنا بعد اليوم، سأخرج للشوارع مثلي مثل كلِّ الشرفاء.

- الأوغاد يتربَّصون بك، أخاف أن نفقدك.

- هذا النظام اللعين جرَّدني من كلِّ شيء، فقدتُ أبي في طفولتي بسببه، وفقدت بعده أحلامي، ثُمَّ توالى الفقد، فقدت صديقي سُليمان بسبب دفاعه عنِّي، ثُمَّ اغتُصبت حبيبتي بسببي، واغتُصبت أُمِّي وأخواتي بسببي، أمعن النظام في قتلي، تآمر ضدِّي، سدَّد لي طعناتٍ مُختلفة ومتباعدة، ركلني من الخلف والأمام، سقطت مغشيًّا على آلامي، ارتطمت حدَّ النزف، كنت أنزف في كلِّ مرَّة نزفًا مُختلفًا، بعد ضياع شرفي، لم يتبقَّ لي شيء يستحق الحرص، أو أحد أخشى فقدانه، أو حتى حلم أعيش لأجل تحقيقه.

- أعلم حجم ألمِك، ولا أعلم تفاصيل قصَّتِك، لا أدري كيف قتل النظام أباك، وكيف أُغتصبَت حبيبتك؟!

- هناك أسرار كثيرة في حياتي لم تسعفني الظروف لسردها، لو حدث لي أيَّ مكروه، افتح سيارتي، وستجد بها دفترًا، ووثائقَ، ومستنداتٍ، وأموالًا تخص الشعب السوداني، وستجد بعض أرقام هواتف، مع كلِّ رقم كلمة سر، هؤلاء هم رفاق النضال في لجان المقاومة، سلِّمهم كلَّ شيء، ولو تعذَّر التسليم، سلِّمهم للنائب العام بعد سقوط النظام.

- أتمنى أن تكون بخير، أهي تركة تخص الشعب؟

- نعم، ما عدا الدفتر، ستجد عليه وصيَّة موتي.

- يا ساتر!

- الموت حق.

- لي طلب؟

- ما هو؟

- تقبَّل دعوتي على الغداء.

- لا رغبة لي في الأكل.

- الطعام ليس مضغ الأكل، الطعام مشاركة وجدانية.

- لست في حالة تسمح بأيِّ شيء، تقبَّل اعتذاري.

- ماذا لو كانت الدعوة لك في دارك؟

- صدِّقني، أحتاج للوحدة أكثر من الطعام.

- حسنًا، سأضع لك طعامًا على الحائط كل يوم، ومعه خرطوم الماء.

- أشكرك.

- سأمدُّك خلسةً بالكهرباء في أقرب وقت.

- لا ترهق نفسك.

مضى وهو يتألَّم لألمي، وتركني وحيدًا أعاني حُمَّى العجزِ، وهذيان الخيبة.

★★★

١٥

لي رغبةٌ هائلةٌ لرؤية نادية وأُمِّي وأخواتي، ليتني أضعهنَّ جميعًا على صدري لمواساتهنَّ، سأعتذر لهنَّ عن أنانيَّتي وحمايةِ نفسي، وتعرضهنَّ للاغتصابِ بسببي، كيف أواجههنَّ؟ قالتها لي نادية إنَّها لم تَعُدْ تصلح للزواج، لو أرملة كنادية تقول ذلك، فكيف شعور فتيات كنجوى وندى؟! ماذا عن أُمِّي؟ هل أنجبتني وتعبت في تربيتي؛ ليكون جزاؤها الاغتصاب بسببي؟! تمنَّيت الموت، هذا أنا، ابنٌ عاق، وأخٌ عاق، وحبيبٌ عاق، ومواطنٌ عاق، وشوكةُ حوتٍ وقفَت عائقًا في حلقِ الوَطن.

تكفَّل طارق بمُساعدتي، لا حاجة لي للاتصال بلجان المقاومة؛ للحصول على الأكل والماء، ضميري يعذِّبني كُلَّما ساعدوني، مهامهم الوطنية أكبر من أكلي وشربي.

عكفتُ على دراسةِ المُستندات والوثائق، رأيت كيف كان خالي يُسيطر على جهاز الأمنِ، وينغمس في الفساد، هناك مستندات تُثبت إدانتي في عدد من القضايا، لاح اسم الأستاذ هشام، وتقريرٌ عنه، كتبته بيدي، يا إلهي، كيف أجرمت في حَق معلِّمي وكتابة كلّ هذه القذارة؟ توقفت عند هذا التقرير، منذ اغتياله توالت على رأسي المصائب، هل بدَأَت تتحقَّق نبوءَة سعيد بن جُبير ضد قاتله الحجَّاج؟ كم تبقَّى لي من الزَّمنِ حتى رمقي الأخير؟! وكيف ستكون نهايتي؟! صرت أردِّد مقولةَ سعيد بن جبير، "مالي وهشام، مالي وهشام".

سمعت صوت طارق يُناديني وهو يمسك بالطعام على الحائط، تناولته، أكملت الاطلاع على المستندات، وعاودت كتابة وصيَّتي.

في مساءِ اليوم التالي، بَدأَتْ الهتافات الليلية تعلو، هتافات عنيفة هزَّت سماءَ قلبي، مع كلِّ هتاف يرتعش جسدي، لابدَّ من الخروج معهم، لا يليق بي الاختباء وشوارع الحقِّ تفور، هي فرصة للقيام بتمرين ثوري؛ لترويض وحش خوفي، خرجت للشوارع وهتفت معهم:

"يسقط يسقط حُكم العَسكر".

كنت في وسط المتظاهرين، تسندنا الهتافات، ويسترنا الظلامُ، عند منعطف صغير، شَبَّ كَلبٌ أحمقٌ على ساق أحد الثوَّار، ضاعت بهجة الهتافات وسط صرخات الفزع، قلت للثوَّار بأعلى صوتٍ، تواجهون الرَّصاص والموت، وتخافون من كلبٍ ضال، ضاع صوتي وسط الذعر، تشتَّتنا في كلِّ اتجاه، صرختُ فيهم أن يلتفُّوا ويتماسكوا، بسبب التشتُّت حاصرنا جهازُ الأمن، طوَّق حركةَ بعض المتظاهرين، وانهال علينا بالضرب، صَرَخَت فتاةٌ في وجوههم دفاعًا عن صديقتها، لكمها أحدُ العساكر، وحاولوا اعتقالي، فلتَت ساقاي منهم بأعجوبة، تركتها لريح الخوف، وركضت نحو المجهول، كنت أجري بسرعة فائقة، لا أدري إلى أيِّ اتجاهٍ؟ لا يهم، كلُّ الاتجاهات التي تخلو من جهاز الأمن تعني الأمان، تريَّثتُ قليلًا؛ لأستريح من عناءِ الرَّكضِ، وجدت شبابًا في سِنِّ المراهقةِ يتحدَّثون بلُغةِ الثورة، وقفت عندهم، أنفاسي تتلاحق بشدَّة، ولساني يلهث، قال لي أحدُهم:

- فرارك يعني أنَّك من الثوَّار.

ردَّ شابٌ آخر:

- دعه حتى تستعيد أنفاسه التوازن.

وآخر يقول:

- يخضع للتفتيش فورًا.

قلت لهم بصوتٍ مُتهدِّج:

- أريدُ ماءً.

- صاح شاب:

- أمهلني دقائق.

عادَ، وهو يتفرَّس ملامحي، يساوم وضوحها مُقابل الماء، قال لي وهو يتلهَّف الإجابةَ:

- ما اسمك؟! ومن أيِّ حَيٍّ؟

التفّوا حولي بطريقةٍ دائريةٍ؛ ليمنعوا عنِّي الهرب، كان عددهم كبيرًا. قلت لهم:

- ما فائدة اسمي؟!

- من أيِّ حي؟

- الكلاكلة صنقعت.

ضحك ضحكة بلا معنى، قائلًا:

- حسنًا، ستخضع للتفتيش.

- لا مانع.

حين لمس جيبي، تذكَّرت أنّ بطاقة جهاز الأمن لا زالت معي، استعدت أنفاسي قليلًا، قلت لهم صائحًا:

- احذروا، كلابَ الأمن.

التفتوا جميعًا للوراء، هي فرصتي الآن، أطلقت فيها ساقي لرياح الهرب الليليَّة، حين انتبهوا لخدعتي كنت بعيدًا عنهم، سمعت ضحكاتهم، ولم يحاولوا اللحاق بي، رميت بطاقةَ الأمنِ في أقرب قمامة، ورجعت للبيت بإحساسٍ عظيم، إحساس أنَّني جزء من هذه الثورة، وتمنيت لو أكون وقودها.

ناديت على طارق، لبَّى النداء، قلت له:

- عرقي يتصبَّب.

ضحك قائلًا:

- انتظرني، لحظات.

بعد حمَّامٍ دافئٍ، قُلت له:

يمكنك قَفل الماء من عندك.

- أتمنَّى أن نتحدَّث قليلًا.

- ما الأمر؟!

- الأمر عاجل، ولا يُحتَمَل.

- تفضَّل بالدخول.

قال لي وهو يقدِّم طعامًا وشرابًا:

- مكانتك عندي كأحد أفراد أسرتي، أرجو أن أكون في مقام أخيك.

تأملته، في نفس عمري، ملامحه قروية، حاول تمدينها وفشل، تبدو تفاصيل حياتِه ممزوجة بين الرِّيفِ والمدينة، طريقة لبسه تجمع بين

البداوة والحضارة، على حروفِ كلماتِه لثغة حميمة، وهو يعاني من صعوبة تفكيك مفرداته الريفية، وتحويلها إلى لغةِ المدينة، قلت له:

- أنت صديقي، وفي مقام أخي.

- لذلك أطلب منك ألَّا تستحي مِنّي، لو شعرت بالجوعِ، ولم تجد طعامًا على الحائط، أرجو أن تطرق بابي، طلبت مِنّي زوجتي أن أنقل لك هذه الرسالة.

- شكرًا لكما، لي طلب واحد.

- ما هو؟

- وجب علينا تخليد ذكرى سُليمان، أفكِّر في مشروعٍ إنسانيٍّ تقيمه أنت من أجله.

- فكرة جميلة، ما المشروع؟

- الماء.

- ماذا تعني؟!

- الماء هو سبب تعارفنا، وسُليمان صديقنا المشترك، ماذا لو حفرت بئرًا في قريةٍ ما، وجعلتها سُقيا للناس والحيوان.

- سبحان مَنْ جَعل الماءَ يحمل سِرَّ الحياةِ.

- في عينيك حزنٌ يا طارق.

- هناك أمر محُزن.

- ما هو؟!

- حاولت أختك الصغرى الانتحار.

أصابني الهلع، أمسكته بقوَّةٍ، وهززته هزًّا، وقلت له:

- ماذا تقول؟!

- بعد حادثة الاغتصاب، طلبتُ من صديقي الشُّرطي تفقُّد أحوالهنَّ، ومدَّهُنَّ بكلِّ دعم، زارهم اليومَ، وأخبرته أُمُّك بذلك.

- هل شرحت له الأسباب؟!

- لا.

- هل تعلم أُمِّي بمعرفة الشرطي بقصة اغتصابهنَّ؟!

- مستحيل! لا أحد يعلم بهذه القصَّة غيرنا.

- كيف زار الشرطي أُمِّي؟! هل توقَّف جهاز الأمن عن مراقبة بيتنا؟!

- لا أدري.

- أرجوك اتصل به الآن.

عاود الاتصال مرَّات عديدة، أخيرًا نجح الاتصال، بدأ طارق في التحايا، خطفتُ الهاتفَ من يدِه، وقلت للشرطي:

- آسف لإزعاجك.

قال بصوتٍ ناعسٍ:

- لا، لا عليك.

- يبدو أنَّني أيقظتك من النوم.

- غفوت قليلًا.

- بماذا أخبرتك أُمِّي؟!

- تحدَّثت إليها من أمامَ البابِ، طمأنتها عليك، فاطمأنت، طلبت رؤيتك، أخبرتها بصعوبة ذلك، قالت لي إنَّ أختك الصُّغرى حاولت الانتحار.

- هل رأيت أختي؟!

- لا.

- ماذا عن المراقبة؟!

- ظاهريًا، لا مراقبة.

- هل تأكدت؟!

قال باستنكار:

- أنا مساعد في المباحث المركزية.

- حسنًا، سأزورهنَّ غدًا.

- لا أنصحك، من المؤكَّد أنَّ شكلَ المراقبةِ اختلف، حتمًا ينتظرون ظهورك في أيَّة لحظة.

- ولماذا لم يعترضوا طريقك؟

- كنت أرتدي زيَّ الشرطة، وطرقت عدَّة أبواب؛ لإيهام المراقبة والجيران بأنّني في مهمة تفتيش رسمية، ليس المقصود بها بيتكم.

- حسنًا فعلت، لديَّ فكرة جريئة.

- ما هي؟

- استعارة ملابسك الشرطية، وزيارة بيتنا.

- سقوط النظام بات أمرًا وشيكًا، أخشى اعتقالك وتصفيتك.

- سأكون بخير، اطمئن.

- دعني أفكِّر في الأمر، وتدبير ملابس تليق بطولك وحجمك.

- أرجوك، بسرعة.

- لا تقلق، كم طولك ووزنك؟

- في نفس حجم طارق.

- حسنًا.

- أتحتاج لمالٍ لهذه المهمَّة؟

- حتى لو احتجت، لن أطلب منك.

- أشكرك، تصبح على خير.

استمع طارق لحديثنا، قال بلهجتِه القروية مُعاتبًا:

- لا يجدر بك سؤالك الأخير.

أبقيته على صدري طويلًا، وقلت له:

- ما أسعدني بك، وبصديقك.

فلت من صدري، نزلت دموعه، كفْكفها وهو يتنهَّد، قائلًا:

- لا تنسَ عشاءك، وبعضَ الحليب.

- أحتاج لطاقة تُعينني على الجري.

ضحك قائلًا:

- رأيتك تعدو بسرعة.

- هل شاركت معنا في المظاهرة؟

- لا تفوتني لحظة نضالية دون مشاركتي فيها.

- ما أروعك.

لوَّح لي بابتسامةٍ هانئة، مضى وتركني في جحيمِ وحدتي، كنت في غاية التعب، قرأت قليلًا في الوثائق، تمدَّدتُ على فراشي، قبل النوم طافت بخاطري شخصيةُ طارق، طيبته وصلابة مواقفه، وثوريته وكرمه الأصيل، شعرت بمدى تعاطفه الإنساني معي ومع ذكرى سليمان، وتعجَّبت، كيف تلاقت أرواحنا بسرعة في خلال يومين فقط، ووصلنا لهذا الحد من الثقة والحُب والتعامل والوضوح؟ ما نجحت فيه مع طارق في يومين، فشلت فيه مع المُقدِّم حسن لسنوات، كيف عانيت لسنوات في الوصول مع حسن لعلاقة إنسانية مثل علاقتي بطارق؟ ما السر في نفوسِ الشرفاء ذاك الذي افتقدته في شخصية حسن؟ ما الفرق في العلاقات الإنسانية بين ضابطين في جهازِ أمنٍ دموي؟ وبين اثنين من عامةِ الناس؟ تذكَّرت كيف كان حسن يصدُّني بذكاءٍ من التقرُّب إليه، وكيف نجح في إقامةِ سَدٍّ بيننا من العزلةِ انتهى بقتله للثوَّار وبقتلي له.

وبين دموع طارق وهو يمدّ لي الطعام ويذكِّرني بأكله، تذكَّرت حين قلت لحسن إنَّني لا أجد متعة في الحكم، وكان ردُّه أنَّه لا يجد متعة إلا في الحكم، تذكَّرت كيف استجاب طارق سريعًا لحفر بئرٍ لسقيا الناس، وكيف استجاب حسن سريعًا لتعذيب غسَّان واغتصابِه، كيف يرتوي الشرفاء من صدقِ علاقاتهم الإنسانية؟ ويفتقدها أفراد جهاز الأمن المشغولون بسفك دماءِ الناس، قارنت بين ابتسامة حسن المصنوعة وبين ابتسامة طارق الدافئة، وتعجَّبت من اختلاف طبيعةِ النفسِ البشرية، أدركني النعاس، نمت سريعًا، مطوَّقًا بحُلمٍ جميل.

استيقظت في صباح اليوم التالي على أصواتِ هتافات مُدوية، ما أجمل أن أنام على حُلم، وتوقظني هتافات تحقيقه! خرجت للشارع، توسطَّت الجموع الهادرة، حين وصولنا (لقّة القبّة) نظرتُ للخلف، أين نادية؟! من بعيد رأيت مكانَ بيعِ الشاي، أين هي؟! ليتها تتظاهر معنا، الحشود هائلة، وأنا أبحث عن حبيبتي وسط الآلاف، أهتف بحنجرتي، وعيناي تبحث عن نادية، زحفت بعنف نحو المقدِّمة، مقدِّمة التظاهرات مكان يليق بنادية، صرت في أول الصفوف، عيناي تبحث عنها بشغف، حتى شعرت بيد حنونة تُمسك بيدي وتعبث بخاتمي، انتفضت، نظراتها تعانق نظراتي، كفها يحتضن كفي، إبهامُها يتواطأ مع سبابتها، وُيمسكا بخاتمي، ويلفَّاه لينتزعاه، مهَّدت للخاتم بالخروج، لفظته من جوف أصبعي، وعند طرف الإصبع التقفته يدها سريعًا، نادية بقربي، تطوّقني بوجودها، تُمسك الخاتمَ وتُقبِّله، مسكته منها، قبَّلته ودسسته في إصبعها، مسحتْ عليه، وابتسمتْ، احتضنتْ كفّي بحنان، نام كفي على كفها متوسِّدًا الخاتم.

نحن الآن في قلب الثورة، وفي عُمق الهتاف، شلالات الأحاسيس تغمرني من كلِّ اتجاه.

الهتافات تعلو، وحماسي يزداد، سحبتْ يدها من يدي، وبدأتْ تُصفّق وتهتف بأعلى صوت:

"يا والدة ياشامة

يافيض من الرحمة

ياواهبة أياما

تمرقنا من زحمة

وتشوفنا قداما

كالصارم الأحمى"

بادلتها التصفيق والغناء:

"من حقّي أغني لشعبي.

من حق الشعب.... عليّا.

لا بي إيدك تمنع.... قلبي.

ولا قلبي كمان... بي إيديا."

كانت تردِّد خلفي وتبتسم لي، من بعيد رأيت سيارات جهازِ الأمنِ، أعرف هذه السيارات جيدًا، عربات مكشوفة من أعلى وبلا لوحات، هذه لحظة من أجمل اللحظات في حياتي، أقف على طريق الحقِّ بوضوح، وجهًا لوجه ضدّ جهازِ الأمن، ومعي حبيبتي نادية، صار الاحتدام وشيكًا، وصرنا أكثر قدرة على المواجهة، الملايين في الشوارع، وأخبار سارة تنزل علينا كالمنِّ والسَّلوى وسط التظاهرات، هل انحاز الجيش للثوَّار؟! هل سقط النظام؟! عدم تصدِّي قوات الأمن لنا يعني حتميَّة سقوط النظام، أطلقت نادية زغرودة فرح، وأطلق الأمن رصاصَهُ علينا، أصابتني رصاصةٌ في صدري، سقطتُ على الأرض، الثوَّار حولي يصرخون، نادية تصرخ وتتحسَّس قلبي، وابتسامة تتأرجح بين شفتي، وتستقر بين عينيها، هدهَدني صوتُها وهي تهتف باسمي بذعر، اقتربت عيناها من عيني، أمسَكَت رأسي بيديها ورفعته لأعلى، وَضَعَتْ خاتَمها على شفتي، وسمعتها تقول: "وداعًا أشرف، وداعًا لحُلمٍ اقترب منِّي ولم أنَله، اقترَب حدَّ الإفلاتِ، وابتعَد حدَّ الاعتناء".

تمت

* **الحِجلة:** لعبة أطفال شعبية تلعبها البنات.

* **أرنب نُط:** لعبة أطفال شعبية.

* **بنبر:** مقعد شعبي صغير، ومنخفض.

* **الصالح العام:** تشريد ممنهج للعاملين والموظفين غير الموالين لنظام البشير.

***

الكاتب في سطور

• **المُعز عبدالمُتعال سِر الخَتم**

- بدأ حياته الجامعية بالسودان
- هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 2000
- تخرج في جامعة CCSU بكالوريوس كلية الاقتصاد
- في تخرج في جامعة UNH ماجستير إدارة الأعمال
- يعمل بوظيفة محلل مالي منذ عام 2006 وإلى الآن.

• **الإصدارات الأدبية المنشورة:**

« جيسيكا » رواية - دار أوراق - القاهرة 2016

« بئر الدهشة » رواية - دار روافد - القاهرة 2017

« متاهة الأفعى » رواية - دار أفاتار للطباعة والنشر 2018

« نهر وثلاث ضفاف » رواية - دار أفاتار للطباعة والنشر 2019

« أحلام على وسادة الوطن » رواية - دار أفاتار للطباعة والنشر 2021

• له مجموعة من القصص القصيرة، والمقالات المنشورة بالصحف، ووسائل التواصل المختلفة.

***


AVATAR
AVATAR For Printing & Publishing أفاتار للطباعة والنشر

I am Sorry !!!!!

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	7
الفصل (١)	9
الفصل (٢)	17
الفصل (٣)	27
الفصل (٤)	41
الفصل (٥)	55
الفصل (٦)	71
الفصل (٧)	79
الفصل (٨)	95
الفصل (٩)	113
الفصل (١٠)	131
الفصل (١١)	147
الفصل (١٢)	157
الفصل (١٣)	179
الفصل (١٤)	195
الفصل (١٥)	189
الكاتب في سطور	201



برغمِ مرورِ سنواتٍ على حديثي مع نادية، إلا أنَّني دومًا أسترجع هذا الحديث، وأقفُ طويلًا عند سُؤالِها المُخيف، على أيَّةِ وسادةِ حُلمٍ تَضع رأسَك حينَ تنام؟! لا يزال حديثُها يحمل نفس فلسفةَ الصِّراعِ الأزليِّ بين الفكرةِ ونقيضِها، باختلافِ درجاتِ الوضوحِ، هزَمَني مَنطِقُها في مُواجهةِ عبثيَّةِ حَياتي!

وبرغم قناعتي بعدمِ جَدوى السِّياسة، إلا أنَّها تعيش للآخرين، بينما أعيشُ لذاتي، تؤدِّي وظيفتَها في الحياةِ بجَسارةٍ، وأؤدِّيها بخَجلٍ وخَوف، اكتشفتُ أنَّني ضابطُ أمنٍ ضَئيل، عَرَّتني أمامَ مِرآةِ نَفسي المَشروخة، وكَشَفتْ دَوريَ البائسَ في الحياةِ، الحذرُ والمشي بجانبِ الحائط، فعلٌ مُخزٍ؛ لا الحائط ساتر، ولا طريقي يُفضي للحَقِّ، ماذا لدَيَّ لأخسره؟!

لوحة الغلاف للفنان السوداني: إسحق عبدالغفور



